منارات
manarat

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير
فخري كريم

ملحق ثقافي اسبوعي يصدر عن جريدة المدى

العدد (1979) السنة الثامنة - السبت (4) كانون الأول 2010

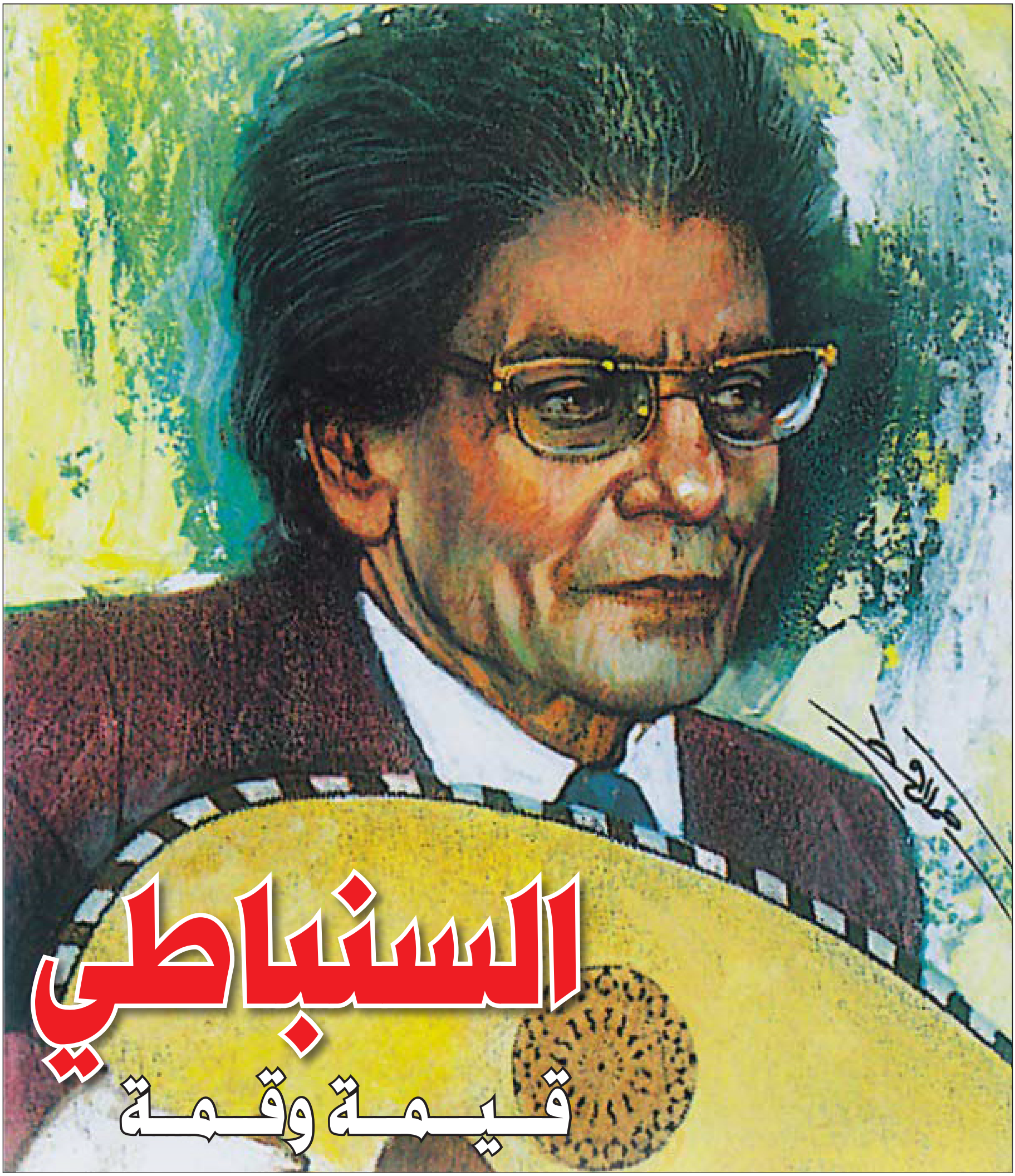

السنباطي

قيمة وقمة

رياض السنباطي .. ملك التلحين

رياض السنباطي (١٩٠٦ - ١٩٨١) موسيقار وملحن مصري، أحد عباقرة الموسيقى العربية، والملك المتفرد بتلحين القصيدة العربية، اسمه بالكامل محمد رياض السنباطي والمولود في ٣٠ نوفمبر (تشرين الثاني) من عام ١٩٠٦ في مدينة فارسكور التابعة لمحافظة دمياط بشمال دلتا مصر، وكان والده مقرئا تعود الغناء في الموالد والأفراح والأعياد الدينية في القرى والبلدات الريفية المجاورة، وتتفتح أذنا الفتى الصغير على أبيه وهو يعزف على العود، ويغني الغناء الأصيل والتواشيح الدينية، فلما بلغ التاسعة من عمره، ضبطه والده عند جارهم النجار هاربا من المدرسة، يضرب على العود ويغني بصوته أغنية «الصهبجية» لسيد درويش فطرب لصوته، وقرر أن يصطحبه معه للغناء في الأفراح، وكان ذلك خاتمة عهد عصر سلامة حجازي وفاتحة عصر سيد درويش، كانت لمصر دنياها، وللأرياف دنياها، لكن بداية ظهور الأسطوانة والفونوغراف سنة ١٩٠٤ مكنت الصلة بينهما.. فاستمع الفتى الصغير إلى عبد الحي حلمي ويوسف المنيلاوي وسيد الصفطي وأبو العلا محمد وتتلمذ على أيديهم من دون أن يراهم، إلا أنه ظل دائما مدينا لوالده الشيخ محمد الذي قام بتعليمه تراث الموسيقى العربية، ومن بينها أغنيات لمحمد عثمان وعبده الحامولي. لم تطل إقامة الشيخ السنباطي الكبير في فارسكور، فنزح إلى مدينة المنصورة عاصمة الدقهلية وألحق ابنه بأحد الكتاتيب، ولكنه لم يكن مقبلا على الدرس والتعليم بقدر إقباله وشغفه بفنون الموسيقي العربية والغناء.

وتهيئ الأقدار للصبي الطريق الذي يتفق مع أهوائه وميوله، حيث أصيب وهو في التاسعة من عمره بمرض في عينه، أحال بينه وبين الاستمرار في الدراسة، وهو ما دفع بوالده إلى التركيز على تعليمه قواعد الموسيقي وايقاعاتها. وقد أظهر رياض استجابة سريعة وبراعة ملحوظة، فاستطاع أن يؤدي بنفسه وصلات غنائية كاملة، وأصبح هو نجم الفرقة ومطربها الأول وعرف باسم «بلبل المنصورة»، وقد استمع الشيخ سيد درويش لرياض فأعجب به أعجابا شديدا وأراد أن يصطحبه إلى الإسكندرية لتتاح له فرصا أفضل، ولكن والده رفض ذلك العرض بسبب اعتماده عليه بدرجة كبيرة في فرقته.

وفي عام ١٩٢٨ كان قرار الشيخ السنباطي الاب بالانتقال إلى القاهرة مع ابنه، الذي كان يرى انه يستحق أن يثبت ذاته في الحياة الفنية، مثله مثل أم كلثوم التي كان والدها صديقا له قبل نزوحه إلى القاهرة. في ذلك العام بدأ السنباطي مرحلة جديدة من حياته لا يمكن وصفها بالسهولة. وإزاء تلك الصعوبات كانت رغبته في إثبات ذاته، وسط مناخ المنافسة الشديد ولهذا وفي تواضع جم وإنكار لذاته ولقدراته، وامتثالا لواقع الأمور تقدم بطلب لمعهد الموسيقى العربية، ليدرس به فاختبرته لجنة من جهابذة الموسيقى العربية في ذلك الوقت، إلا أن أعضاءها أصيبوا بنوع من الذهول، حيث كانت قدراته أكبر من أن يكون طالبا لذا فقد أصدروا قرارهم بتعيينه في المعهد أستاذا لآلة العود والأداء. ومن هنا بدأت شهرته واسمه في البروز في ندوات وحفلات المعهد كعازف بارع. ولم تستمر مدة عمله بالمعهد إلا ثلاث سنوات، قدم استقالته بعدها حيث كان قد اتخذ قراره بدخول عالم التلحين، وكان ذلك في مطلع الثلاثينيات من القرن الماضي عن طريق شركة أوديون للاسطوانات التي قدمته كملحن لكبار مطربي ومطربات الشركة ومنهم عبد الغني السيد، ورجاء عبده، ونجاة علي، وصالح عبد الحي.

حياة السنباطي الخاصة كانت غاية في البساطة، بل أنها تكاد تقترب من ملامح الانطوائية والعزلة الا عمن يتعامل معهم من المطربين والموسيقيين. وعرف عنه انه يقضي وقته في صومعته يسمع ويسجل وينتظر الخاطرة تمر عليه والإلهام. وتروي زوجته أنه كان في بعض الأحيان يكون جالسا مع أهله على المائدة يتناولون طعام الغداء. وبعد أن يأكل لقمة واحدة يتوقف عن الأكل ويفكر، ويذهب إلى صومعته إلى الغرفة المختصة، وهناك يصب اللحن الجديد الذي ربما كان ينتظره شهورا، وكانت زوجته تبرر تصرفه للضيوف بقولها: تفضلوا وواصلوا طعامكم فهذه عادة السنباطي، وقد تعودنا عليها.

ومع تطور أسلوب السنباطي وسطوع نجم ام كلثوم في منتصف الثلاثينيات، كان لا بد لهذين النجمين من التلاقي. وكانت البداية بأغنية «على بلد المحبوب وديني»، التي قدمت عام ١٩٣٥ ولاقت نجاحا كبيرا. لينضم السنباطي إلى جبهة الموسيقي الكلثومية والتي كانت تضم القصبجي وزكريا أحمد. إلا أن السنباطي كان مميزا عن الآخرين فيما قدمه من ألحان لأم كلثوم بلغ عددها نحو ٩٠ لحنا، إلى جانب تميزه فيما فشل فيه الآخرون الا وهي القصيدة العربية التي توج ملكا على تلحينها. سواء كانت قصيدة دينية أو وطنية أو عاطفية، ولذلك آثرته السيدة أم كلثوم من بين سائر ملحنيها بلقب العبقري.

في أحد لقاءاته الصحافية روى رياض لقاءه بأم كلثوم فقال: بعد سبعة عشر عاما من لقائنا الأول في قرية «درينش إحدى قرى الدقهلية، التقيت بالفتاة أم كلثوم مرة أخرى، بعد أن كان صيتها قد ملأ الآفاق في القاهرة. وقتها كنت أحسد الذين يلحنون لها وكانت تتحرك في أعماقي ملكة التلحين، تعبيرا عن عواطف جياشة يعيشها الشاب في مثل سني».. كنت أقيم في شقة لوحدي وطلبت تليفون كي يسهل علي أعمالي واتصالاتي، وفي اليوم الأول الذي

دخل فيه التليفون إلى الشقة، سمعت أغنية لأم كلثوم من الراديو، فتذكرت تعارفنا في محطة الدلتا. وكنت قد عرفت رقم تليفونها من الإذاعة فاتصلت بها، وعندما ذكرت لها اسمي تذكرت بأن والدها الشيخ ابراهيم كان يغني مع والدي في الأفراح، ودار بيننا حديث قصير قالت لي في نهايته «ابقي خلينا نشوفك يا أستاذ رياض، مادام أنت في مصر وأنا في مصر».

وبعد أغنية «على بلد المحبوب وديني»، لحن رياض لأم كلثوم «النوم يداعب عيون حبيبي»، كلمات أحمد رامي. والتي أعجبت بها أم كلثوم وقدمته في حفلها الشهري على مسرح قاعة ايوارت التذكارية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. وكان حفلا مذاعا، ويعتبر من المنعطفات في حياة أم كلثوم والسنباطي معا. وظل رياض يمد أم كلثوم بألحانه وروائعه، حيث وجد رياض في صوت أم كلثوم ضالته المنشودة، فبقدراتها الصوتية غير المحدودة وبإعجازها غنت ألحانه فأطربت وأبدعت.

أعماله لأم كلثوم

- علي بلد المحبوب
- أنشودة الربيع
- الملك بين يديك
- عيد الدهر
- قضيت حياتي حيري عليكي
- نشيد الجامعة (يا شباب النيل)
- النوم يداعب
- الورد فتح
- إجمعي يا مصر
- الشمس مالت للمغيب
- أذكريني
- بغداد
- فاكر لما كنت جنبي
- لما أنت ناوي
- يا ليلة العيد أنستينا
- أوبريت عايدة بالإشتراك مع القصبجي
- قالوا احب القس سلامه
- هوي الغانيات (كيف مرت على هواك القلوب)
- السودان
- أصون كرامتي
- سلوا قلبي غداة سلا وتابا
- سلوا كؤوس الطلا
- ظلموني الناس
- غلبت أصالح
- غني الربيع بلسان الطير
- حاقابله بكرة
- طالما أغمضت عيني
- نهج البردة
- هلت ليإلى القمر
- ولد الهدي
- يا طول عذابي
- النيل
- ياللي كان يشجيك أنيني
- رباعيات الخيام
- سهران لوحدي
- مصر تتحدث عن نفسها (وقف الخلق)
- يا ظالمني
- صوت الوطن (مصر التي في خاطري وفي دمي)
- أغار من نسمة الجنوب
- بأبي وروحي الناعمات الغيدا
- قصة حبي (ذكريات)
- عرفت الهوي مذ عرفت هواكا
- علي عيني بكت عيني
- يا صحبة الراح
- الفجر الجديد
- الله معك
- صوت السلام هو اللي ساد
- أروح لمين
- بطل السلام
- بعد الصبر ما طال
- بغداد يا قلعة الأسود
- دليلي احتار
- شمس الأصيل
- عودت عيني
- قصة الأمس
- ثورة الشك
- منصورة يا ثورة أحرار
- أغنية الجيش
- هجرتك يمكن أنسي هواك
- قصة السد
- ثوار ولآخر مدى
- حيرت قلبي معاك
- توبة
- ح سيبك للزمن
- الزعيم والثورة
- بالسلام وبالمجد
- لسه فاكر
- ليلي ونهاري (لا يا حبيبي)
- الحب كده
- يا جمال يا مثال الوطنية
- طوف وشوف
- أراك عصي الدمع
- أقولك إيه عن الشوق
- إلى عرفات الله
- حولنا مجري النيل
- رأيت خطاها علي الشاطئين
- يا حبنا الكبير
- يا ربي الفيحاء
- الأطلال
- أرض الجدود
- حبيب الشعب
- حديث الروح
- قوم بإيمان وبروح وضمير
- أجل إن ذا يوم لمن يفتدي مصر
- أقبل الليل يا حبيبي
- رسالة
- من أجل عينيك عشقت الهوى
- الثلاثية المقدسة
- القلب يعشق كل جميل

الأطلال

اغنية الاطلال من كلاسيكيات الموسيقى العربية وهي الأغنية التي اعتبرها النقاد تاج الاغنية العربية واروع اغنية عربية في القرن العشرين، كما يعدها الكثيرون أجمل ما غنت أم كلثوم وأروع ما لحن السنباطي، وغنتها ام كلثوم عام ١٩٦٦ وهي اجزاء من قصيدة الاطلال الاصلية بالإضافة إلى اجزاء من قصيدة الوداع للشاعر ابراهيم ناجي و لم تكن تلك هي المرة الوحيدة التي تدمج فيها ام كلثوم اجزاء قصيدتين في اغنية واحدة، فقد فعلتها في اغنية حديث الروح والتي لحنها السنباطي أيضا حينما ادمجت اجزاء من قصيدة شكوى مع اجزاء أخرى من قصيدة اجابة الشكوى للشاعر محمد إقبال.

ويذكر أن ابراهيم ناجي مؤلف قصيدة الأطلال تعب في اقناع ام كلثوم بغنائها وهو حي يرزق حتى نجح في مسعاه لكن ظروف اندلاع ثورة يوليو حالت دون غنائها. و لم تكن ام كلثوم تغني لاي من الشعراء الاحياء مراعاة لشعور احمد رامي فلم يحدث ان غنت ام كلثوم من غناء شاعر حي الا ثلاث مرات :

- المرة الأولى حينما غنت قصيدة (مالى فتنت بلحظك الفتاك) للشاعر علي الجارم
- المرة الثانية حينما غنت قصيدة (قالوا احب القس سلامة) للشاعر علي أحمد باكثير والتي لحنها السنباطي
- المرة الثالثة حينما غنت قصيدة للشاعر محمد الاسمر

و لكل مرة ظروفها التي اجبرت فيها ام كلثوم على التخلي عن قاعدتها. إلا أن ام كلثوم تحررت من مجاملتها لرامي التحرر الكامل في منتصف الخمسينيات. و حينما ارادت ام كلثوم ان تغني قصيدة ناجي لم ترد ان تتخير ابياتا من قصيدة الاطلال الطويلة جدا (١٣٢ بيتا) لكنها تخيرت ابيات فقط منها وتخيرت ابياتا من رائعة ناجي الأخرى (الوداع) لتغنيها جميعا تحت اسم الاطلال

أعماله الاخرى

لحن للكثيرين من سلاطين الطرب أمثال منيرة المهدية، فتحية أحمد، صالح عبد الحي، محمد عبد المطلب، عبد الغني السيد، أسمهان، هدى سلطان، فايزة أحمد، سعاد محمد، وردة، نجاة، و عزيزة جلال و ابتسام لطفي والذي قدم لها مجموعة من الأغاني العاطفية ولحن لها آخر عمل فني له: قصيدة الزمزمية وقصيدة من أنا؟، لتكون بذلك آخر فنانة تقدم أعمال رياض السنباطي وتتوج بذلك مسيرتها الفنية بقصيدة الزمزمية وقصيدة من أنا؟ التي لم تعط حقها كما يجب بسبب اعتزال عزيزة جلال

أسلوبه

وقد تأثر السنباطي في بداية تلحينه للقصيدة بالمدرسة التقليدية، كما تأثر بأسلوب زكريا أحمد. وأخذ رياض عن عبد الوهاب الطريقة الحديثة التي ادخلها على المقدمة الموسيقية، حيث استبدل بالمقدمة القصيرة أخرى طويلة. كما كان من أوائل الموسيقيين الذين ادخلوا آلة العود مع الاوركسترا، ويري المؤرخون الموسيقيون أن ملامح التلحين لدى السنباطي قبل عام ١٩٤٨ اعتمدت على الإيقاعات العربية الوقورة، والبحور الشعرية التقليدية الفسيحة، والكلمة الفصحى التي تقتضي في الإجمال لحنا مركزا، والسكك المقامة الراسخة البعيدة عن المغامرة، لكن كثيرا من ألحان السنباطي قبل ١٩٤٨ كانت تنم منها أعراض التأثر المباشر الصريح، بمن عملوا معه من عباقرة اللحن، فانصرف إلى أسلوبه الخاص يعلي صرحه لبنة لبنة، حتى اختلط الأسلوب الكلثومي في الغناء بالأسلوب السنباطي في التلحين، وأمكن لرياض أن يقول: «قصة حياتي هي أم كلثوم».

علاقته بالسينما

علاقة السنباطي بالفن لم تنحصر في الموسيقى والتلحين فقط، فقد قدم في عام ١٩٥٢ فيلما للسينما شاركته بطولته الفنانة هدي سلطان وكان من إخراج المخرج حلمي رفلة. وعلى الرغم من نجاح الفيلم إلا أن السنباطي الذي قدم فيه مجموعة من الاغنيات التي لاقت الاستحسان لدى الجمهور، لم يفكر في تكرار التجربة. من دون إفصاح عن الأسباب إلا انه قال : «لم أجد نفسي في التمثيل فاللحن هو عالمي».

تكريمه

- عضوا لنقابة المهن الموسيقية
- عضوا في جمعية المؤلفين بفرنسا
- عضوا للجنة الموسيقي بالمجلس الأعلى للفنون والآداب
- عضوا لجمعية المؤلفين والملحنين
- وسام الفنون من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عام ١٩٦٤
- وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى من الرئيس الراحل محمد أنور السادات
- جائزة المجلس الدولي للموسيقى في باريس عام ١٩٦٤
- جائزة الريادة الفنية من جمعية كتاب ونقاد السينما عام ١٩٧٧
- جائزة الدولة التقديرية في الفنون والموسيقى
- الدكتوراه الفخرية لدوره الكبير في الحفاظ على الموسيقى
- جائزة اليونسكو العالمية وكان الوحيد عن العالم العربي ومن بين خمسة علماء موسيقيين من العالم نالوا هذه الجائزة على فترات متفاوتة.

وفاته

وقد رحل رياض السنباطي عن الدنيا في التاسع من سبتمبر (أيلول) ١٩٨١ لتغلق تلك المدرسة الفنية الكبيرة أبوابها، وتنطوي أروع صفحة من صفحات الموسيقى العربية، ولينتهي عصر فريد لا نظير له.

رياض السنباطي..

فارس القصيدة الغنائية وأستاذ العود بلا منازع

نشأ "السنباطي" في مناخ موسيقي فني أصيل ، فهو ابن لشيخ امتهن قراءة القرآن ، والإنشاد الديني في الموالد والأفراح والأعياد الدينية في القرى والريف المجاور ، فتفتحت أذنا الصبي على صوت عود أبيه الذي يعزف عليه بجدارة ، وعلى ترديده للغناء الأصيل والتواشيح الدينية ، فلما بلغ التاسعة من عمره أخذه شغفه بالغناء والموسيقى من الدراسة ، فكان يهرب من الصف الدراسي ليضرب على العود ويغني من وراء ظهر أبيه ، لكن الأمر لم يطل كثيراً فلقد اكتشفه والده عند جارهم النجار ، وهو هارب من المدرسة ويضرب على العود حيث سمعه يغني الأغنية التراثية (الصهبجية) مرددا (ناح الحمام القمري على الغصون) ، فطرب لصوته كثيراً وقرر أن يصطحبه معه في الأفراح والموالد.

سفيان أحمد

وفي تلك الأيام كانت مصر تنقسم في طبيعة حياتها بين الريف والعاصمة القاهرة ، فللريف دنياه الخاصة الهادئة ، وللعاصمة عالمها الصاخب الذي يمر بالكثير من التجارب الفنية والموسيقية ، فقد كان سلامة حجازي يختتم عصر مجده ، بينما يبدأ سيد درويش طريقه الموسيقي الذي أحدث به انقلاباً كبيراً في مفهوم الغناء في المنطقة العربية ككل ، كما كان ذلك العصر أيضاً هو عصر بداية ظهور الأسطوانة و(الفونوغراف) ١٩٠٣ ، ما أتاح للفتى رياض أن يستمع إلى أصوات مطربي ذلك الوقت مثل عبد الحي حلمي ويوسف المنيلاوي وسيد الصفطي وأبي العلاء محمد وغيرهم ، وظل والده هو المعلم الأول له والذي تعلم على يديه أغاني محمد عثمان وعبده الحامولي.

وظل رياض السنباطي يجول مع والده في الأرياف حيث الموالد والأفراح حتى استقرا في مدينة المنصورة بمحافظة الدقهلية وبدأ يشتد عوده في الغناء والعزف على العود حتى لقبوه ببلبل المنصورة وهو مازال في الثانية عشرة من عمره.

وعندما بلغ السابعة عشرة من عمره ، انتقل إلى القاهرة ، حتى يلتحق بمعهد الموسيقى العربية ، ويبدأ في شق طريقه الفني الذي كان قد استقر رأيه على أنه هو المستقبل الذي يريده لنفسه ، لكن لم يلبث رياض الالتحاق بالمعهد حتى رأى أساتذته انه يعلم الكثير جداً من فنون العزف على العود وفنيات الغناء ما يجعله غير محتاج للدراسة تحت إشرافهم ، بل إنهم ذهبوا إلى القول بأنه يجب أن يدَرس لطلبة المعهد ليفيد الدارسين من علمه الموسيقي الغزير ، وأسلوبه الفريد والمتميز في العزف على آلة العود الأصيلة ، فعينوه أستاذاً لتعليم الموشحات والعزف على العود وتم اعتباره بالإجماع واحداً من طليعة عازفي العود العرب إن لم يكن أعظمهم.

وفي المعهد أتيحت الفرصة لرياض السنباطي أن يلتقي بأمير الشعراء أحمد شوقي والمطرب الشهير الذي يرعاه محمد عبدالوهاب الذي صار موسيقار الأجيال فيما بعد ، حيث تأثر بصحبة هؤلاء الفنانين الكبار كما ارتقى بمشاعره وسما بمداركه وجعله أكثر فهماً وتذوقاً للشعر الذي أوحى له فيما بعد بألحانه ، فقرر أن يتجنب السهولة وإغراء الرواج والشهرة الرخيصة وابتغى المستوى الراقي المتميز.

في ذلك الوقت تعرف السنباطي إلى حسين المنسترلي الذي عرفه عن طريق شركة أوديون الشهيرة لإنتاج الاسطوانات ، فأخذ يسجل لديها ألحانه لقاء أجر زهيد جداً ، لكنه بعد فترة وجيزة اَثر التلحين على الغناء فغنى له مغن يدعى عبدالقادر (أنا أحبك وأنت تحبني) وغنت له السيدة منيرة المهدية سلطانة الطرب آنذاك أوبريت (عروس الشرق) وغنى له عبد الغني السيد (يا ناري من جفاك).

قبل عام ١٩٤٨ كان رياض السنباطي يحاكي في ألحانه الكثير من عباقرة التلحين المصريين آنذاك مثل محمد عبدالوهاب وزكريا أحمد ، لكن تأثره الأكبر والأكثر وضوحاً في أعماله الأولى كان بالموسيقار الكبير محمد القصبجي ، فمن الملاحظ في ألحانه الأولى للسيدة أم كلثوم ، أنه كان شديد التأثر بأسلوب محمد القصبجي ناسجاً على منواله ، لكنه ما لبث أن استقل بشخصيته الفنية مبدعاً وناهلاً من ذاته وروحه ، فخرجت ألحانه بطريقته الخاصة المميزة ، ولا شك في أن غناء السيدة "أم كلثوم" لألحانه ساعد في شهرته كما فتحت له أبواباً يظهر فيها إمكاناته اللحنية.

غنت ألحان "رياض السنباطي" أصوات متعددة ، لكن أهم صوت أعطى ألحانه بريقاً ذهبياً وقيمة فنية كبيرة كان بلا شك صوت سيدة الغناء العربي "أم كلثوم" ، وكانت بداية اللقاء الفني بين "السنباطي وأم كلثوم" عام ١٩٣٦ حين لحن لها (النوم يداعب عيون حبيبي) كلمات "أحمد رامي" ، وأعجبت "أم كلثوم" باللحن فقدمته في حفلها الشهري على مسرح قاعة إيوارت التذكارية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وقفت "أم كلثوم" وفرقتها لتقدم ملحنها الجديد في مونولوج (النوم يداعب جفون حبيبي) وكان حفلاً مذاعاً ما جعل تلك الأغنية نقطة تحول في حياة كل منهما (السنباطي وأم كلثوم).

بعد نجاح هذه الأغنية تمسكت "أم كلثوم" بـ"السنباطي" فانضم إلى باقة ملحنيها مثل "القصبجي وزكريا أحمد" ، وظل "رياض" يمدها بألحانه وروائعه حيث وجد في صوتها ضالته المنشودة ، فبقدراتها الصوتية غير المحدودة وبإعجازها غنت ألحانه فأطربت وأبدعت.

وقد شارك رياض السنباطي كوكب الشرق في فيلم (وداد) الذي لعبت بطولته ، فلحن لها الأغاني التي غنتها بالفيلم إضافة إلى أغنية (على بلد المحبوب) التي كان "رياض" قد قدمها للمطرب "عبده السروجي" وسجلها على أسطوانة ، فاستأذنته "أم كلثوم" وغنتها خلال الفيلم ، كما لحن أيضاً السنباطي الموسيقى التصويريه له.

خص "رياض" حبه وفنه للقصيدة حيث قال عنها (الشعر أرقى أنواع الأدب فيجب أن تكرس له أرقى أنواع التلحين ، لأنه الوسيلة الوحيدة للارتفاع بالمستوى الثقافي والفني للجماهير. وهذا لن يتم إلا عن طريق أقرب وسيلة للتعبير عند الجماهير وهي الغناء الذي يعتبر ألصق الفنون وأقربها إلى نفوس الجماهير).

وقد مارس فن تلحين القصيدة باقتدار عدد من الموهوبين منهم "محمد عبدالوهاب وأحمد صدقي ومحمود الشريف ومحمد فوزي وفريد الأطرش ومحمد الموجي وكمال الطويل" في مصر ، إضافة إلى "خالد أبي نصر وحليم الرومي ونجيب سراج والأخوين الرحباني وتوفيق باشا" وغيرهم في بلدان المشرق العربي ، غير أن "عبدالوهاب والسنباطي" بقيا الفارسين الكبيرين في هذا المجال ، لأنهما أسسا لكل الألوان الممكنة في فن القصيدة الغنائية ، فبقيت كل التجارب اللاحقة على جديتها وقيمتها تدور في فلك إنجازات عبدالوهاب والسنباطي ويكمن تأريخ بداية دخول السنباطي ميدان القصيدة الغنائية بمنتصف الثلاثينيات من القرن العشرين ، عندما كان عبدالوهاب قد وصل في تطوير هذا الفن تأليفاً وغناء إلى مرحلة بالغة التقدم والتطور ، وهي المرحلة التي سرعان ما تطورت قبل نهاية الثلاثينيات إلى مرحلة قصائد مثل الصبا والجمال وسجى الليل وقيس وليلى والجندول.

وتقول الحقيقة التاريخية إن "السنباطي" قد بدأ تجاربه في ميدان القصيدة الغنائية منذ مطلع الثلاثينيات ، وإن كانت تجارب أشبه بالتمارين الأولى في هذا الفن الصعب ، التي لم تبدأ ثماره الناضجة بالظهور حتى النصف الثاني من الثلاثينيات.

ومع أن أمير الشعراء أحمد شوقي قد اشتهر في تاريخ الغناء والموسيقى بصفته الراعي الروحي والفكري والثقافي لـ"محمد عبدالوهاب" ، فإن شغف شوقي بفنون الموسيقى والغناء الذي بدأ بـ"عبده الحامولي وعبدالحي حلمي" وكل من رافقهما وتلاهما من نجوم الموسيقى والغناء وصولاً إلى "عبدالوهاب" ، لم يبخل برعايته على نجوم التلحين والغناء التي بدأ بزوغها مع "عبدالوهاب" مثل "أم كلثوم" أو الجيل التالي مثل "رياض السنباطي".

ومن أشهر ما روي عن علاقة "شوقي" بـ"السنباطي" عندما بدأت مواهب هذا الأخير تلفت الأنظار والأسماع ، انه في إحدى الجلسات الفنية التي كان "شوقي" يستمع فيها إلى النجم الصاعد الجديد "رياض السنباطي" ، أسمعه هذا الأخير قصيدة من ألحانه الأولى فلاحظ "شوقي" عبارة صعبة المعاني في أحد الأبيات الملحنة وتعمد سؤال "السنباطي" عن معنى العبارة ، فلما لم يجد "السنباطي" جواباً ، بادره "شوقي" بنصيحة غالية ، يقول "السنباطي" إنها كانت من أهم الدروس التي تعلمها في حياته حيث قال له (إياك يا بني أن تلحن بيتاً من الشعر أو عبارة لا تفهم معناها).

غير أن جذور "السنباطي" كانت من قبل لقائه بـ"أحمد شوقي" تضرب عميقاً في الإنشاد الديني وتجويد القرآن الكريم ، وليس عجيباً أو غريباً أن كل عباقرة الموسيقى العربية في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين ، كانوا إما من المشايخ وإما من أبناء المشايخ ، وهذه القاعدة تنطبق بدقة أكبر على عباقرة تلحين القصيدة الغنائية ، فقد كان "سلامة حجازي وأبو العلا محمد" من المشايخ ، أما "رياض السنباطي ومحمد عبدالوهاب" فكانا من أبناء المشايخ.

لم يكن غريباً أن "رياض السنباطي" عندما كان يخوض تجاربه الأولى والمبكرة في فن القصيدة الغنائية ، خرج بتحفة غنائية تاريخية تصلح لأن تكون تتويجاً لرحلة طويلة في فن تلحين القصائد ، أكثر مما تصلح لتكون خطوة أولى في هذه الرحلة ، ألا وهي رائعته لأم كلثوم (سلوا كؤوس الطلا) التي صاغ شعرها أمير الشعراء أحمد شوقي ، وبالتحليل الدقيق لمكونات هذه القصيدة (كما فعل مؤرخو ونقاد الموسيقى) يجعلنا نضع أيدينا على أنها احتوت كل العناصر التي أسس عليها السنباطي فيما بعد الخط الأبرز في عمارته الشاهقة لفن القصيدة ، وهو الخط الذي تغلب عليه المشاعر الصوفية حتى عندما يكون موضوع القصيدة عاطفياً ، كما تتجلى فيه فنون العمارة الهندسية العربية الكلاسيكية بما يشبه قصور العرب في الأندلس ، ما ينعكس بدقة وأمانة وعظمة فنية على الهندسة الموسيقية لعمارة القصيدة الغنائية ، وهو الخط الذي أكمله السنباطي فيما بعد في قصائده الدينية مثل (سلوا قلبي ونهج البردة وولد الهدى وحديث الروح) وقصائده العاطفية مثل (الأطلال) وقصائده الوطنية مثل (مصر تتحدث عن نفسها وصوت الوطن) والوصفية مثل (قصيدة النيل).

عن الدستور الاردنية

السنباطي وقاهرة العشرينيات

كانت بداية النزوح إلى القاهرة تلك الرحلات القصيرة التي تعرف فيها على أهل الفن بواسطة أبيه ، والمسارح التي شاهد فيها (منبرة المهدية) وهي تمثل وتغني و (فتحية أحمد) تملأ دنيا الطرب و(نادرة الشامية) تهز الناس بجمالها وصوتها و(صالح عبد الحي) العريق بفنون الطرب و (عبد اللطيف البنا) الذي كان سيد الغناء و الأصوات .. لقد أدرك أن مكانه بين هؤلاء وليس في المنصورة ، وهكذا قرر بينه وبين نفسه الهجرة إلى القاهرة في أول فرصة مناسبة ، وكان عليه أن ينتظر عامين قبل أن تسنح له الفرصة . ففي عام ١٩٣٠ أعلن معهد الموسيقى العربية في القاهرة عن مسابقة في الغناء ، تتيح للفائز فيها أن يدرس الموسيقى وأصول الغناء على نفقة المعهد وكان رياض آنذاك في الثالثة والعشرين من عمره ، فتقدم مع المتقدمين وفاز بالجائزة الأولى بعد أن أذهل اللجنة الفاحصة بعزفه و غنائه ، وعلى أثر هذا الفوز و نتيجة للإختبار الشديد الذي تعرض له رياض عزف على العود ، قرر مجلس إدارة المعهد قبول رياض طالباً في المعهد بقسم الغناء ومدرساً لآلة العود لطلاب السنة الأولى.

يقول رياض السنباطي:

جئت إلى القاهرة وتقدمت إلى إمتحان معهد الموسيقى العربية ، وخرجت أنتظر النتيجة ..ثم كانت المفاجأة ، أنني لم أنجح كتلميذ بل قبلتني اللجنة كأستاذ للعود في المعهد...".

كانت النتيجة أكثر مما يحلم به فالمعهد لن يكتفي بتغطية نفقات دراسته فحسب ، بل سيعطيه راتباً لقاء تدريس العود، سيسد به دون شك جانباً كبيراً من نفقات إقامته في القاهرة ، التي تتطلب مصاريف خاصة لا طاقة له بها ، وكان تأثير الأستاذ حسن أنور الذي أعجب بعزف رياض وغنائه عاملا كبيراً في قرار تعيينه أستاذاً لآلة العود في المعهد المذكور .

لقاء السنباطي بمدحت عاصم

إهتم رياض خلال دراسته في معهد الموسيقى العربية بالتدوين الموسيقي إهتماماً كبيراً. حتى أن الفنان السوري المعروف جميل عويس الذي كان مدرساً للتدوين ومعلماً لآلة الكمان قال عندما أعياه إلتهام رياض لهذا الضرب من العلم الموسيقي :

" لم يبق عندي ما أعلمه لهذا الشاب.!

أما الأديب حسن أنور (وهو المشرف على فرقة الموشحات) فقد أسند إلى رياض مهمة قيادة فرقة الموشحات بعد أن إكتشف معرفته الواسعة لعشرات الموشحات وإتقانه المطلق لمختلف ضروبها وأوزانها ، إضافةً لفن الدور الهام والأساسي في الحفلات الغنائية . كل هذا بعد أشهر من إنتساب رياض للمعهد.

ويقول رياض السنباطي عن سبب إسناد أمور هذه الفرقة إليه ما يلي:

"...إن الموسيقي الذي علمني فن الموشحات والأدوار وجعلني أحتل هذه المكانة في المعهد هو المرحوم والدي ،أما الأستاذ حسن أنور فأدين له بالفضل لأنه عرف كيف يجعلني أستفيد من المعلومات التي أعرفها وأضعها في الموضع الصحيح".

ولكن هل كانت إنطلاقة رياض الفنية من المعهد الذي إنتسب إليه ، وأصبح فيه خلال فترة قصيرة مدرساً بارزاً؟! الجواب على هذا نجده عند الموسيقار الكبير مدحت عاصم الذي قال عن بدايات معرفته برياض مايلي:

".... جاء السنباطي إلى القاهرة في نهاية العشرينيات ، وتعرف عليه في الطريق ..كان بصحبة المطرب محمد الصادق ودفعني الفضول لأن أشترك معهما في الحديث ، فقد كان حديثهما عن الموسيقى ، لذا إعتبرت نفسي طرفاً في الحديث ، وطال بنا الحديث وإمتد حتى إنتقلنا إلى بيت السنباطي ، وكان الوقت بعد العشاء ،وظللنا تلك الليلة ننهل من عزفه حتى الصباح . وبعد يومين إتصلت بالمسؤول في شركة إسطوانات "أوديون" وهو يهودي مصري يدعى (ليتو باروخ) وطلبت منه الإتفاق مع فنان موهوب على تلحين عدد من الأغاني لعدد من المطربين و المطربات فقبل وإتصل به وإتفق معه على تلحين عدد من الأغنيلت لكل من نجاة علي ، أحمد عبد القادر ، محمد صادق وعبد الغني السيد .

إن(ليتو باروخ) لم يأخذ برأي مدحت عاصم إلا بعد أن إستمع للسنباطي نفسه وهو يغني من شعر علي محمود طه قصيدة "يامشرق البسمات أضيء ظلام حياتي".

تقول السيدة حورية المانسترلي إبنة حسين المانسترلي مدير شركة بيضافون للإسطوانات ما يلي :

"أول لحن سجله السنباطي بصوته عند قدومه للقاهرة كان لشركة بيضافون في موسم الحج وكانت أغنية "إمتى نعود يا نبي" بالإضافة إلى عدة أغنيات لقاء أجر قدره جنيه واحد للإسطوانة وكان يتقاضى نصف جنيه مقدماً والنصف الثاني عند إنتهاء التسجيل ".

هذا القول للسيدة حورية المانسترلي لا تؤيده الوقائع إذ من المعروف أن أغنية "إمتى نعود يانبي" المعروفة بإسم "عودة الحجاج" سجلت بصوت المطرب أحمد عبد القادر لحساب شركة أوديون ولا يوجد تسجيل آخر لها بصوت السنباطي ، وربما كانت السيدة حورية تقصد بقولها أغنية أخرى سجلها السنباطي فعلاً لحساب شركة بيضافون ، وإذا إفترضنا أن قول السيدة حورية صحيحا، فهو يناقض قول مدحت عاصم الذي سعى إلى عقد إتفاق مع (ليتو باروخ) مدير شركة أوديون الألمانية للإسطوانات ، لتسجيل ألحان عبد القادر ونجاة علي و عبد الغني السيد ومحمد صادق منذ أواخر العشرينيات ، وهذا التاريخ يسبق إنتساب السنباطي لمعهد الموسيقى ، فإذا أضفنا إلى هذا أن الأغنية المذكورة ظهرت قبل لقاء السنباطي بأم كلثوم عام ١٩٣٤ وهو العام الذي بدأ يلحن فيه لأم كلثوم ، فنستطيع أن نؤكد وقف ألحانه منذ عام ١٩٣٠ على شركة أوديون دون غيرها ، وإستمر في ذلك حتى منتصف الأربعينيات ، وعندما أخذت أم كلثوم تسجل ألحانه على إسطوانات شركة كايروفون التي أسسها محمد عبد الوهاب الذي كان قد أوقف ألحانه على شركة بيضافون .

وزيادة في الإيضاح ، لتبرير التناقضات حول العقود مع شركات الأسطوانات ، كان الملحن يعقد إتفاقاً مع أحد الشركات على عدد من الألحان فإذا إنتهى من تسجيل الألحان المطلوبة أصبح العقد لاغياً ، وبالتالي يحق للملحن إما تجديد العقد إذا إرتأت الشركة ذلك، أو يتعاقد مع شركة أخرى ، ومن هنا كان إتفاق السنباطي مع شركة بيضافون محدوداً ، وإنتهى بنهاية تسجيله الأغنيات المطلوبة منه ، وماحدث بالنسبة لشركة بيضافون ، وقع له مع شركة أوديون التي عادت ووقعت عقداً جديداً بعد إنتهاء عقده مع بيضافون.

ألحان السنباط البكر

أولى ألحان السنباطي التي ظهرت قبل إنتسابه لمعهد الموسيقى العربية في العام ١٩٣٠ لاتزيد كثيراً عن أصابع اليد الواحدة ، ولكنها لفتت الإنتباه مع قلتها إلى الوافد الجديد على دنيا الطرب ، فغنى له عبد الغني السيد مونولوج (عذابي يا منايا) وقد غناه السنباطي فيما بعد ، وكذلك غنت له المطربة نجاة علي لحنين من ألحانه.

يقول الأستاذ جبرائيل سعادة في الكتيب الخاص الذي وضعه خاصةً عن السنباطي ، ونشرته مجلة الضاد السورية حول العقد الذي وقعه السنباطي مع شركة أوديون مايلي:

"...حدث أن مدير شركة إسطوانات أوديون سمعه في أول لحن له ، وهو الذي وضعه لقصيدة من تأليف (علي محمود طه) مطلعها "يا مشرق البسمات أضيء ظلام حياتي " فأعجب به ، وعهد إلى الملحن الناشئ بتلحين بعض الأغاني الخفيفة ، لعدد من المطربين أمثال : نجاة علي و أحمد عبد القادر و عبد الغني السيد و محمد الصادق.."

هذا القول للأستاذ جبرائيل سعادة يتفق مع ماذهب اليه الموسيقار مدحت عاصم وإن إختلفت الصورة في بعض ملامحها ، وإتفقت في مضمونها عموماً ، وإلتقت في الوقت نفسه مع ما رواه السنباطي حول هذا الموضوع عندما قال:

".... ثم بدأت أتحسس طريقي في القاهرة المزدحمة والمتخمة بالعازفين والمغنين و الفنانين ، حتى سمعني مدير شركة أوديون حينئذ و أنا أغني أول مقطوعة لحنتها بنفسي وكن مطلعها (يا مشرق البسمات أضيء ظلام الليل) وهي من تأليف الشاعر العاطفي الكبير علي محمود طه ، فعهد إلى بتلحين بعض الأغاني الخفيفة لشركته ، ولحنت حينئذ لأحمد عبد القادر طقطوقة (إن حكيت بتضحكي وإن شكيت بتشتكي) ولعبد الغني السيد (دلالك في الهوى).

إنصرف السنباطي منذ ذلك الوقت إلى التلحين وفي الوقت نفسه أخذ يتصل بالملحنين الذين كانوا يلحنون لمنيرة المهدية و نادرة الشامية وفتحية أحمد ونعيمة المصرية وحياة صبري وسعاد محاسن و ملك وعقيلة راتب ويشارك في حفلات المعهد الشهرية وفي الحفلات الخيرية الخاصة ، وقد ساعده هذا على ذيوع إسمه و إنتشارة في الأوساط الفنية و غير الفنية ، وإشتهر كعازف عود أكثر من إشتهاره كمطرب و ملحن ، وإذا علمنا أن الأغاني في تلك الفترة الزمنية كانت تضفي الشهرة والمجد على المغني وحده من دون الملحن لأدركنا المعاناة التي كان الملحنون يعانون منها بعيداً عن الأضواء . تقول د.نعمات أحمد فؤاد:

أن كل أمل السنباطي في العام ١٩٢٨ هو إن يرتفع أجره عن الملحن الواحد إلى عشرة جنيهات.

هذا القول يدل دلالة صريحة وقاطعة على أن السنباطي كان في القاهرة قبل العام ١٩٣٠ وهو تاريخ إنتسابه للمعهد الموسيقي ، وأن ألحانه بدأت تظهر للناس منذ ذلك التاريخ . وهذا القول يتفق مع ما رواه مدحت عاصم عن لقائه بالسنباطي في أواخر العشرينيات .

مرحلة الثلاثينيات.. فيلم إنشودة الفؤاد

في العام ١٩٢٩ إتصلت به المطربة نادرة الشامية وطلبت منه أن يشارك في تلحين بعض أغاني فيلم "إنشودة الفؤاد" الذي ستضطلع فيه بدور البطولة إلى جانب الممثل الكبير "جورج أبيض" ويعتبر هذا الفيلم الذي وضع قصته وكتب حواره وأغانيه "عباس محمود العقاد" أول فيلم عربي غنائي ظهر في السينما المصرية . لحن أغاني الفيلم المذكور عدد من مشاهير الملحنين آنذاك ، يأتي في مقدمتهم : الشيخ زكريا أحمد ،داود حسني، د.أحمد صبري النجريدي أحمد الشريف ، رياض السنباطي .

لحن السنباطي في الفيلم أغنية واحدة هي " تتباهى بالدمع يجري من عيني "

تتباهى بالدمع يجري من عيني وتأسي قلبك
وكل ما أكتم في سري يفضحني بعدك وصدك
أوصل مسايا بصباحي والبدر يشهد علي
وتراعي ذلي ونواحي ما ترحميش ليه عيني
إيه يجري او تسعديني بلحظة منك هنيه
بالوصل يوم ترحميني بزيارة منك أسيه
يا ربي قلبك ياروحي يجرب العشق فيه
وتدوقي نار المحبة وترقي لدموع عينيه

أجمل ألحان هذا الفيلم كانت لزكريا أحمد ، وقد برز منها بصورة خاصة بيت شعري مسبوق غناءً بكلمة يا ليل من مقام الصبا ..هذا البيت أصبح على كل شفه و لسان و مازال يضرب به المثل في التلحين :

كان الصراع على قمة الغناء بين المطربات عند ظهور هذا الفيلم في العام ١٩٣١ على أشده بين منيرة المهدية وفتحية أحمد ، وكانت شهرة أم كلثوم التي بدأت حفلاتها المضطربة في القاهرة منذ العام ١٩٢٤ تنمو شيئاً فشيئاً في ظل هذا الصراع .

لقد سجل الفيلم عند ظهوره سبقاً سينمائياً وغنائياً لنادرة على زميلاتها ورفع من شأنها ، الأمر الذي دفعهن إلى الإتصال بملحني الفيلم الذين سبق لهم وأن لحنوا لهن الكثير من الأغنيات ، عدا السنباطي الذي لم يلحن لأي واحدة منهن عدا (نادرة) ، فعمدن إلى الإتصال به أيضاً ، وكانت منيرة المهدية المتربعة على عرش الغناء في ذلك الوقت ، السباقة إلى ذلك ، فطلبت منه أن يلحن لها أوبريت ، فلحن لها خلال بضعة أشهر أوبريت "عروس الشرق" التي أحرزت عند عرضها الأول نجاحاً منقطع النظير . ولم يقف الأمر عند منيرة المهدية ، فسارعت فتحية أحمد ومن ثم نادرة الشامية فطلبتا منه تلحين عدد من الأغنيات ، فلم يتوان عن ذلك ، كذلك طلب منه المسرحي الكبير جورج أبيض تلحين أوبريت (آدم وحواء) الذي ستشاركه البطولة المطربة نادرة فأنجزه في وقت قصير ، وكان الأوبريت من تأليف يونس القاضي .

أم كلثوم التي كانت ترقب ذلك الصراع منذ وطئت قدماها القاهرة ، وتهفو إلى القمة إستسلمت لشروط الفنان الكبير الراحل محمد القصبجي ، وأسلست له قيادتها منذ عام ١٩٢٥ (أي قبل وفاة أبي العلاء محمد بعامين) ونفذت ما طلبه حرفياً ، وأنفقت في الحدود التي تستطيع ، فإستبدل القصبجي فرقة المنشدين بفرقة موسيقية(تخت شرقي) قوامها أعلام العازفين آنذاك (محمد العقاد الملقب بالكبير على القانون ، سامي الشوا على الكمان ، محمد القصبجي على العود ، محمود رحمي على الإيقاع) وإنتقى النخبة من الملحنين ، منهم من سبق ولحن لأم كلثوم كالشيخ أبي العلاء محمد والدكتور صبري النجريدي و داود حسني و ومنهم من كان يتوق للتلحين لها كالشيخ زكريا أحمد و محمد القصبجي نفسه ، وإختار لها مسرح (دار التمثيل العربي) عوضاً عن الصالات العادية التي كانت تغني بها قبلاً ، كصالة (البوسفور) و صالة (سانتي) و كان مسرح (دار التمثيل) وقفاً على المطربة منيرة المهدية ، ولكن القصبجي إستطاع إغراء صاحب المسرح الذي وقع مع أم كلثوم عقداً طويل الأمد . ومنذ شهر تشرين الأول/أكتوبر/ عام ١٩٢٦ بدأت حفلات أم كلثوم تستقطب الجمهور ، وصوتها الساحر ينتزع الإعجاب ، على الرغم من حملات الصحافة المغرضة المركزة التي أسعرتها ضدها سيدات الطرب عن طريق المرتزقة المحررين منذ العام ١٩٢٩ حين بدأن يشعرن بخطر تلك المطربة الشابة التي أخذت تصعد نحو قمة الغناء ، وتزاحمن من وراء فنها الذي تتقن وعمالقة التلحين والعازفين الذين يرفدونها بروائع الألحان والأداء.

محمد عبد الوهاب في الطرف المقابل ، لم يجابه ما تجابهه أم كلثوم من مقاومة ، فموت سيد درويش المبكر في العام ١٩٢٣ وخلو الساحة من المطربين القديرين إلا من الشيخ أمين حسنين و صالح عبد الحي ، جعله بمساعدة شوقي يتربع على قمة الغناء ، دون أن يهتم كثيراً بشهرة أمين حسنين و صالح عبد الحي و محد بخيت و البنا والمطربين الآخرين من الناشئين ، كمحمد صادق وعبد الغني السيد وعبده السروجي و أحمد عبد القادر . كما أن صداقته لمنيرة المهدية وتمثيله معها أوبرا كيليوباترا(٢) التي أسهم في تلحينها ، إلى جانب علاقته الوطيدة بسائر المطربات والملحنين ، وما يملك من صوت جميل و خيال موسيقي خلاق.. كل هذا جعله بمنأى عن الصراع ، فإذا أضفنا إلى هذا علاقته الجيدة بالبشاوات التي أتاحها له راعي موهبته أحمد شوقي لعرفنا سر قوة محمد عبد الوهاب و مكانته التي أقامها أساساً على موهبته الشابة المتفتحة و على علاقاته الشخصية ، والتي كرست كل شيء لخدمة فنه الكبير منذ منتصف العشرينيات ليجد نفسه في قمة الغناء دون أن يمر كثيراً بالعناء الذي مر به الأعلام الكبار الآخرون.

رياض السنباطي..القيمة والقمة..

سناء البيسي

أزيح الستار عن رياض السنباطي عازف العود الشاب الموهوب ممسكا بريشته ليرتجل تقاسيمه بفيضها المتدفق السريع الزاخر حينا.. الهادئ حينا كأنه الهمس الرقيق الرفيق إذا أراد له أن يتسلل عبر براعته في الترويق، متنقلا بخبرة الدارس مع الخيال الخصب والإلهام المسترسل وفهم المقامات، من مقام الرست ليعرج علي مقام البياتي والصبا والعجم.. تقاسيم كأنها السحر خلقة ربنا يطعمها صاحبها بالزخارف أينما يحلو له لتتمايل الرؤوس.. اللّه.. الحفل كان بمناسبة تغيير اسم نادي الموسيقي الى معهد فؤاد الأول للموسيقي العربية ويحضره فؤاد ملك مصر وحاشيته وكبار القوم..

وما أن بدأت ريشة إلىد إلىمني تقرع الأوتار مرات لتعفق إلىسري بالعود من رقبته لتضيف زخارف تزيد العزف جمالا ورونقا، وما أن بدأ روقان العازف ينجلي ويتجلي في حضور الملك حتي انبثقت ضجة الجارسونات وصولات وجولات تقديم الأطباق والمرطبات فوق موائد الضيوف ليهرب وحي الموسيقي مما أعاق سرد الأنغام الملهمة لساعتها، وأهان الفنان في أوج عطائه فلزم الصمت الفجائي ووضع الريشة جانبا وحمل عوده وقام مغادرا ليس الى البهو الخارجي وإنما الى بيته رأسا ليقدم استقالته من المعهد الملكي مع الصباح التالي..

محمد رياض السنباطي أعظم وأبرع عازف عود ظهر علي مدى التاريخ.. من كان عندما يجلس الى عوده تشعر كأنه فرقة موسيقية مستقلة.. الذي غادر قاعة يترأسها الملك فؤاد الأب ليعزف بعدها للملك فاروق الابن لتغني علي ألحانه أم كلثوم كوكب الشرق في ليلة عيد الفطر مساء الأحد١٧ سبتمبر١٩٣٦ في حديقة النادي الأهلي بالجزيرة طقطوقة يا ليلة العيد أنستينا لتحول تشكيل كلمة الكوبليه الأول عند دخول الملك القاعة من هلالك هل علينا الى هلالك هل بعنينا ليتحول المعني احتفاء بالملك الذي هل على الحفل.

ولهذا أنعم فاروق على أم كلثوم بوشاح الكمال لتغدو بموجبه صاحبة العصمة، وليلتها نادى على مصطفي أمين من بين الحاضرين وطلب منه أن يصعد معلنا نبأ حصول أم كلثوم على منحة نيشان الكمال من الملك المفدى.. وكانت أم كلثوم قد غنت في عام١٩٣٢ في معهد فؤاد للموسيقى العربية أمام الملك فؤاد الذي صفق لها كثيرا خاصة حين غنت له أفديه إن حفظ الهوى وملك الفؤاد.. وقامت بترديد ملك الفؤاد بتوزيعات حنجرتها الذهبية أكثر من مرة، وقد سبب هذا الحفل الملكي أزمة داخل الوسط الفني بسبب عدم دعوة سلطانة الطرب منيرة المهدية للمشاركة، ووقتها تبارت المجلات الفنية في تناول القضية وأسباب إبعاد الست منيرة واختيار الآنسة أم كلثوم.. وتواكب ألحان السنباطي بصحبة حنجرة أم كلثوم تاريخ مصر منذ عام١٩٣٦ فيقدمان من كلمات أحمد شوقي بمناسبة تولي فاروق سلطته الدستورية قصيدة مطلعها: الملك بين يديك في إقباله عوذت ملكك بالنبي وآله وفي عيد ميلاد الملك عام١٩٣٧ يقدمان من أشعار أحمد رامي الأغنية المسجلة التي مطلعها إجمعي يا مصر أزهار الأماني، وبمناسبة زفافه الى فريدة تترنم أم كلثوم بألحان السنباطي أشرقت شمس التهاني تملأ الدنيا بهاء وضياء، وفي ميلاد الأميرة فريال يكتب رامي:

يا ربوع النيل طيبي بالأماني أنجب
الفاروق للوادي السعيد
واطمأن البال بالميلاد لما نال فاروق المفدى
ما أراد

ومن كلمات بديع خيري يلتقي اللحن والصوت. أم كلثوم والسنباطي. في أغنية الزفة ليلة فرح الإمبراطورة فوزية وإمبراطور إيران الشاهنشاه محمد شهبور، حيث طلبت الملكة نازلي من أم كلثوم أن تزف العروسين بعد أن رأت الخروج عن تقاليد العائلات الكبيرة التي تلجأ في زفة أي عروس إلى فرقة بديعة مصابني أو فرقة ثريا سالم، ووقعت أم كلثوم في حرج شديد حيث كانت قد وضعت مبدأ لا تحيد عنه وهو غناء وصلتها فقط في أي زفاف مع عدم الاشتراك في السير وراء دفوف العروسين للجلوس فوق الكوشة.

ونزولا الى أوامر الأسرة الحاكمة قبلت على أن يكونا أول وآخر عروسين تزفهما، وقد أعدت سريعا للمناسبة الإمبراطورية فستان سواريه من الدانتيل الأسود، وعلمت نازلي - كما ذكرت الدكتورة رتيبة الحفني - من الخياطة ريتا بأمر اللون الأسود فسارعت تطلب فورا تغيير الأسود إلى البمبي، وكانت أول مرة يبطن فيها فستان غامق باللون الفاتح حتى أنها أصبحت موضة أطلقت عليها ريتا الخياطة اسم موضة ثومة.. وتولد الأميرة فادية عام١٩٤٣ لتغني أم كلثوم من ألحان السنباطي وأشعار محمود حسن إسماعيل زهرة هلت على فجر الحياة

وتبث الإذاعة بمناسبة عيد ميلاد الملك في١١ فبراير١٩٤٦ أغنية السنباطي بصوت كوكب الشرق الآنسة أم كلثوم أيقظي يا طير نعسان الورود، وتغني أم كلثوم سلوا قلبي لأمير الشعراء أحمد شوقي من ألحان السنباطي بعد أن أضاف لها الشاعر محمد الأسمر خمسة أبيات احتفاء بضيف البلاد الملك عبدالعزيز آل سعود ومضيفه جلالة الملك فاروق لتظل القصيدة تذاع. كما جاء في مذكرات المؤرخ عبدالقادر صبري - يوميا طوال أيام تشريف عاهل السعودية في مصر وإلى ما بعدها بأيام لتحذف الإضافة من بعدها وكانت بعد البيت الأخير في قصيدة شوقي:

وما للمسلمين سواك حصن إذا ما الضر مسهمو ونابا فأضافت الأبيات:

وكيف ينالهم عنت وفيهم رضا ملكين بل روضين طابا
إذا الفاروق باسم الله نادى رأى
عبدالعزيز قد استجابا
فصن يا ربنا الملكين واحفظ بلادهما
وجنبها الصعابا
هما فجر العروبة أنجبته فقالت
يومي المرجو آبا
إذا اتحدت أسود الشرق عزت عروبتهم
وصار الشرق غابا
ويواكبا معا السنباطي وأم كلثوم أحداث تاريخ مصر لتغني من ألحانه التي بلغت٩٦ طقطوقة وأغنية وقصيدة منبعا منها٣٣ أغنية سياسية ووطنية كان منها

طوف وشوف وهي الأغنية الوحيدة التي حضرها السنباطي بنفسه إذ قاد الفرقة الموسيقية أمام جمال عبدالناصر في احتفالات١٩٦٣ عندما أبدى ناصر لأم كلثوم رغبته في ملاقاته، وغنت من أشعار صالح جودت أيضا بعد الهزيمة من ألحان السنباطي:

انت الناصر والمنصور ابق فأنت حبيب الشعب
قم للشعب وبدد يأسه واذكر غده واطرح أمسه

وهي أغنية تناشده فيها البقاء في الحكم أذيعت لمدة يومين فقط، وغنت من ألحان السنباطي عند موت عبدالناصر قصيدة لنزار قباني رسالة إلى عبدالناصر وبعدها لم تغن أية أغنية سياسية أو وطنية، هذا مع أن الثورة عندما قامت ألغت جميع الألقاب بما فيها لقبها الملكي صاحبة العصمة فخلع عليها الأصدقاء لقب كوكب الشرق تخفيفا عليها من فقدان التميز، وبلغ الغضب منتهاه بأم كلثوم عندما منعت الإذاعة جميع أغانيها باعتبارها من آثار العهد الملكي، لكن عبدالناصر عندما بلغه الأمر من مصطفي أمين سارع يعيد الكروان إلى سماواته قائلا: إذا كانت أم كلثوم من رموز العهد الماضي فلماذا لا نردم النيل ونهدم الهرم؟!.

وإذا ما كان الفنان كإنسان ينفعل بشخصية حاكم أو رئيس أو ملك فهذا من حقه وليس مطلوبا منه أن يكون معارضا سياسيا، وإنما الفنان هنا يعبر عن انفعاله الخاص الملتزم به أمام فنه وقناعته الخاصة وليس أمام السلطة السياسية، وأعماله الفنية تعبر عن رؤيته في لحظة تاريخية معينة فلا تحسب عليه كمنافق أو معارض، وفي هذا الصدد روي عن أحد العلماء وكان مديرا لمعهد ديني معروف بالقاهرة عندما قرر الملك فؤاد أن يزور المعهد فطلب من مديره أن يأتي في موعد الزيارة بجبة لائقة، وهو ما أغضب العالم ليمتنع عن الذهاب من أصله لمكتبه في الموعد المحدد وأرسل في الموعد بجبة جديدة مع رسالة تقول: إنكم قد أردتم جبة جديدة فها هي بين أيديكم، وطالما أنكم لم تعتنوا بوجود العالم فإنني لن أحضر الاحتفال.. وربما نجد في هذا التصرف ما يشابهه في عزة نفس موسيقارنا الشامخ رياض السنباطي عندما أراد السادات تكريمه بمنحه جائزة الدولة التقديرية في عام١٩٨٠، وحدث أن انتظره السنباطي على مدي ساعتين، غادر بعدها قائلا: ابقوا ابعتولي عندما يحضر.. وطلب السادات منه الغناء والعزف أمامه في إحدي الحفلات لكنه رفض الأمر مما أثار استياء السادات منه حتي وفاته في٩ سبتمبر عام١٩٨١ ورغم ذلك منحه السادات التقديرية ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولي، والدكتوراه الفخرية عام١٩٧٧ لدوره الكبير في الحفاظ علي الموسيقي العربية عام١٩٧٧، وفي العام نفسه١٩٧٧ حصل رياض السنباطي علي جائزة اليونسكو العالمية باعتباره مبدعا وخلاقا ومؤثرا بموسيقاه في شعوب المنطقة، وهو الوحيد في الوطن العربي الذي نال هذه الجائزة، كما أنه كان واحدا من خمسة فقط في العالم الذين حصلوا عليها.. وأبدا لم يحضر السنباطي حفلة واحدة من حفلات أم كلثوم كمستمع في الصف الأول مثل الشاعر أحمد رامي ليرقب تأثير فنه علي حنجرتها، ولا مثل محمد عبدالوهاب الذي كان يقف خلف الستار يتلمس إعجاب الجمهور بألحانه في لقاء السحاب مع أغنيته لثومة انت عمري..

كان زاهدا في مثل هذا الموقف، ومنذ بدأت معه أم كلثوم كان يفضل الانفراد بصوتها في حجرته الخاصة حيث لا يقطع خلوته ومتعته أحد.

بلبل المنصورة رائد النهضة الكلثومية حارس الموسيقي العربية الصارم الذي ألغى تسجيلا مع إحدى الفرق لضبطه عازفا يدخن.. اللائذ بالصمت لأنه يمتلك بصيرة الأعماق. فن استماع القلب للكلمات. فن تواصل الذهن بجنين الخلق. فن التلقي. فن التوحد في سكون واستغراق يسمع فيه نداء الكلمة وصوت اللحن ونبض الآلات.. وحسبوه بصمته متكبرا، وفات عليهم الخيط الدقيق بين التكبر والكبرياء.. بين الشموخ وعزة النفس لمن لم يتهافت على الظهور ولم يشتر رياء الثناء أو رياء النفوذ أو ابتغاء المنفعة أو اشتهاء المال، بل كان متوحدا عزيزا معتزا..

فنان القيمة والقمة صاحب العطاء الموسيقي بتراثه الخالد، والخالدون كما قال شوقي أربعة: شاعر سار بيته، ورسام ضحك زيته، ونحات نطق حجره، وموسيقي بكي وتره.. ولقد بكي وضحك وعشق ورق وهجر وذاب وأذاب وسهر وأطال السهر وتر رياض السنباطي علي مدي٥٠ عاما قدم فيها١٠٠٠ لحن و١٣أوبريت كتب كلماتها أحمد شوقي، ومحمد إقبال، وصالح جودت، وحسين السيد، وأحمد رامي، وبيرم التونسي، ومحمد علي أحمد، وعبدالفتاح مصطفي، ومحمود حسن إسماعيل، ومرسي جميل عزيز، ومأمون الشناوي، وعزيز أباظة، وفتحي قورة، وصلاح جاهين، وأحمد شفيق كامل، ومصطفي عبدالرحمن، وأحمد فتحي، وإبراهيم ناجي وعباس العقاد الذي كتب له أغنية يا نديم الصبوات أقبل الليل فهات والتي أذيعت لأول مرة مساء الأحد١٤ نوفمبر١٩٤٣.. ألحان يقول عنها صاحبها: تأثرت بالملحنين القدامى.. بأداء عبده الحامولي ومحمد عثمان وعبدالحي حلمي، وبموسيقى سيد درويش، كما تأثرت بالشيخ محمد رفعت والشيخ علي محمود والشيخ محمد صبح، وكان لهؤلاء جميعا أثرهم في تكويني الفني، وما بين بلد المحبوب لأم كلثوم والثلاثية المقدسة استطاع مع كوكب الشرق سريعا التخلص من جاذبية أسلافه في التلحين لينطلق كالصاروخ في الفضاء الفسيح لهذا الفن العظيم، فن تلحين القصائد الذي فتح له صوت أم كلثوم أبوابا سحرية لم تكن تخطر له علي بال، فتفتحت موهبته ليظل حريصا علي تلبية متطلبات صوتها ويرتفع إلى مستوي الإمكانات العبقرية لهذا الصوت النادر الذي كانت صاحبته بدورها لا تناديه باسمه وإنما بلقب العبقري.. العبقري الذي لم يستخدم جملة موسيقية آتية من أي اتجاه، فموسيقاه نابعة من زخم عطاء عبقريته.. من السنبطة في أوج قدرتها علي الكشف عن أجمل مناطق كل صوت.

والغالبية لا تعرف من السنباطي إلا كلثومياته، مع أن من يغفل ألحانه غير الكلثومية يكون قد أسقط ظلما أكثر من نصف ميراثه الموسيقي الضخم في الموسيقي العربية المعاصرة، فهناك٩٧ أغنية لم تشد بها كوكب الشرق، و١٢أغنية

غناها بنفسه إلى جانب٣٦ معزوفة كانت تبثها الإذاعة المصرية في بداياتها لمدة ساعتين مرتين في الأسبوع أشهرها معزوفة رقصة شنغهاي وعرائس البحر ورحيل الفلك.. وقد لحن لفيروز أغنيتين، ولنجاة ثلاثا، وغنت له أسمهان خمسا منها ليت للبراق عينا، ولسعاد محمد فتح الهوى الشباك، ولشادية تلات شهور ويومين اتنين، ولعبدالحليم لحن الوفاء، ولشريفة فاضل ساعة واحدة، ولصباح راحت لياإلى، ولفايزة أحمد لا ياروح قلبي ولميادة أشواق ولنادرة اعطني الناي وغني، ولنجاح سلام عايز جواباتك ولوردة حاقول لك حاجة وكان ذلك في فترة عامي الخصام بينه وبين أم كلثوم حول أجر التلحين وأغنية يا حبيبي لا تقل ضاع حبي التي لم تنجح جماهيريا، ومحمد قنديل أتحدي، وكانت ثومة ترى مثله أن محمد قنديل أجمل الأصوات المصرية خصوصية على الإطلاق وغنى له وعبدالمطلب شفت حبيبي،

وغنى بنفسه سبع أغنيات من تلحينه منها كل شيء راقص البهجة حولي ها هنا وأيها الشادي.. وظهر رياض السنباطي في ثلاثة أفلام أولها في فيلم الوردة البيضاء بطولة محمد عبدالوهاب وسميرة خلوصي، ولم يتعد ظهوره نصف دقيقة فقط كعازف للعود في التخت المصاحب لمحمد أفندي، حيث يبدي في المشهد الميني اعتراضه وتذمره من تأخر محمد أفندي ليغني بعد أن طال انتظار أفراد التخت، والفيلم الثاني بعنوان حلم الشباب ظهر فيه يقود سيارته وهو يغني قصيدة حلم الشباب، والثالث قام فيه بدور البطولة أمام هدى سلطان لتغني من ألحانه قتلوني يابوي ويشترك معها في دويتو من الغناء السريع الخفيف.. وقد غنت له أم كلثوم على بلد المحبوب وديني زاد وجدي والبعد كاويني علي أسطوانة وكان قد وضعها أصلا لها لفيلم وداد فلم تعجبها ليغنيها عبده السروجي، وندمت بعدها لعدم ظهورها في الفيلم، ويقول السنباطي إنها كانت من أندر هفوات أم كلثوم في تقديرها للألحان. ورغم ندرة أحاديثه يقول السنباطي عن بداياته: ولدت في الثلاثين من مارس عام١٩١١ ببلدة فارسكور، وفي سن الثامنة رحلت مع والدي إلى المنصورة، وحدث لي ما يحدث لكل هاو للفن.. كنت أهرب من المدرسة إلى دكان نجار من هواة العزف، ولكن معلمي الحقيقي كان أبي ويلتقي السنباطي وهو في الثالثة عشرة بسيد درويش الذي يعجب به فيصحبه إلى حلواني المنصورة الشهير راندو بولو ليعزمه علي الجاتوه والآيس كريم، ويزداد اقتناعه به عندما يغني أمامه أغانيه الشهيرة أنا هويت وانتهيت وضيعت مستقبل حياتي، وأدرك سيد درويش بحاسته الموسيقية أنه أمام موهبة نادرة فأراد أن يصحب رياض معه، لكن الوالد محمد السنباطي لم يكن في استطاعته الابتعاد عن الابن الذي أصبح بلبل الفرقة، ولا يسافر رياض السنباطي في صحبة والده إلى القاهرة إلا في عام١٩٣٠، ويقول: قبلت في معهد الموسيقي العربية كأستاذ عود وليس كتلميذ، وفرحت لأن هذا سيغطي نفقات دراستي بل سيكون لي راتب، وقد رشحني مدحت عاصم للتعاون مع شركة أسطوانات أوديون لتلحين عدد من الأغنيات لعدة مطربين وكان أول لحن لي مع أم كلثوم النوم يداعب عيون حبيبي

وكانت أصعب ألحاني الأطلال.. كنت خائفا من الأداء.. لم أكن واثقا لأول مرة في حياتي من أداء أم كلثوم، ولما أخبرتها بالتليفون بمخاوفي قبل الحفل قالت لي: ماتخفش يا جدع، وحتشوف حاعمل إيه في العمق اللي انت عاوزه وخايف عليه. وطغت الأطلال ولم يعد هناك سواها، لتتضاءل أمامها كل الألحان التي أتت بعدها بما فيها ألحان السنباطي نفسه. وتلتقي الشهرة مع الحب مع مالكة القلب والدار.. الزوجة.. كوكب عبدالبر المنوفي، من التقي بها في قعدة بمنزل الوجيه حافظ بك بهجت من عشاق الطرب الأصيل، ويبتسم الإعجاب الفوري ليسألها صاحبه: تحبي تسمعي إيه؟ فترد باستحياء وبساطة شديدة: أحب أسمع الجندول، ويأتي رده الدبلوماسي برقة بالغة: والله الجندول دي مش بتاعتي، وأنا مش حافظها أنا حاسمعك حاجة تانية.. وتتلاحق مقدمات وقرارات الإعجاب ليتم الزفاف مساء الأحد الموافق١٧ مارس١٩٤٠ الذي تشترك فيه أم كلثوم بالحضور والغناء بوصلتين منها يا طول عذابي واشتياقي.

وينتهي الحفل مع خيوط الفجر بوصلة محمد عبدالمطلب شفت حبيبي وفرحت معاه ده الوصل جميل حلو يا محلاه.. وفي إنصاتي العميق لراوية رياض السنباطي الابنة الكبري للموسيقار التي ولدت كما يحسب والدها السنين في موسم سلوا كؤوس الطلا وهناك شقيقتها رفيعة التي ولدت مع قصيدة كيف مرت على هواك القلوب، وميرفت التي جاءت في عام جددت حبك ليه، ومحمد الذي ولد في موسم سهران لوحدي، وأحمد من ولد مع قصيدة ولد الهدي، وناهد صغرى كريماته من جاءت مع أغنية يا ظالمني.. مع راوية البكرية ألمس حرص والدها على الحس الشعبي في موسيقاه الشعبية وكأنها من تلحين الشعب كله، وكأن البلاد كلها تغني اللحن بصوت واحد متعدد الطبقات مثل أغنيته وحوي يا وحوي وعلي بلد المحبوب التي تمثل الحنين الجارف للديار.. والدها الذي يعود إليه الفضل في تعويد اللسان العامي في الشارع المصري علي نطق المفردات العربية الفصيحة في سلاسة ومرونة لو ظللنا دهرا ندرسها في مراحل التعليم لما استطعنا حمل اللسان علي نطقها بهذه السلامة والسلاسة والفخامة.. الأب ذو المواعيد المقدسة حتى يقال عنه مواعيد سنباطي أكثر من مواعيد إنجليزي، وقد أتي أحد الصحفيين إليه بعد موعده بثلاث دقائق فخرج إليه يقول: أنا مش موجود، وكان إذا لم يجلس إلى عوده يعزف علي جميع الآلات الموسيقية في غرف البيت: الماندولين والبيانو والناي.. وكان مصيفنا الأول في هانوفيل العجمي عندما كان الشاطئ شاغرا ليجلس متأملا بحور الماء والرمال...وأقول لك إيه عن الشوق يا حبيبي. عايزه أعرف لتكون غضبان أو شاغل قلبك إنسان. حيرت قلبي معاك. دليلي احتار وحيرني. أطفئ لظى القلب بشهد الرضاب فإنما الأيام مثل السحاب. لست أنساك وقد أغريتني بغم عذب المناداة رقيق. عودت عيني على رؤياك. من أجل عينيك عشقت الهوي. سهران لوحدي. والموج يناغي النسيم يحكي له قصة هوانا. والقلب يعشق كل جميل. واثق الخطوة يمشي ملكا. ظالم الحسن شهي الكبرياء. أولى بهذا القلب أن يخفق وفي ضرام الحب أن يحرق. ما أضيع اليوم الذي مر بي من غير أن أهوي وأن أعشق. أين مني مجلس أنت به؟! كيف ذاك الحب أمسى خبرا وحديثا من أحاديث الجوى. حتي الجفا محروم منه. أنا اللي أخلصت في ودي وفضلت طول العمر أمين. ياللي كان يشجيك أنيني. بفكر فيك وأنا ناسي. ثورة الشك.أغار من نسمة الجنوب علي محياك يا حبيبي. أكاد أشك فيك وأنت مني. وما أنا بمصدق فيك قولا ولكني شقيت بحسن ظني. كأنما لم يدر طعم الهوى والحب إلا الرجل الفاجر. وإذا ما التأم جرح جد بالتذكار جرح. جرح الأحبة عندي غير ذي ألم. هجرتك. قصة الأمس. قصة هوايا. ياالذكراك التي عاشت بها روحي علي الوهم سنينا. ذكرياتي عشت فيها بيقين وهي قرب ووصال. اذكريني كلما الفجر بدا. يصعب علي أقول لك كان وأفكرك بليالي زمان وأوصف في جنتها وأصور. حديث الروح. يا فؤادي لا تسل أين الهوي. يقول الناس إنك خنت عهدي ولم تحفظ هواي ولم تصني. أجبني إذا سألتك هل صحيح حديث الناس. خنت؟!.. ألم تخني؟!.. هجرتك والأسي يدمي فؤادي وصنت كرامتي من قبل حبي. لما انت ناوية تهاجريني أمال دموعك كانت ليه؟!.

أروح لمين وأقول يا مين ينصفني منك؟! وما نيل المطالب بالتمني ولكن تؤخذ الدنيا غلابا. لا يا حبيبي. أنا لن أعود اليك. لسه فاكر قلبي يديلك أمان. أراك عصي الدمع شيمتك الصبر. آه من قيدك أدمي معصمي. يا حبيبي كل شيء بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء. ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعدما عز اللقاء، فإذا أنكر خل خله وتلاقينا لقاء الغرباء. ومضى كل إلى غايته لا تقل شئنا فإن الحظ شاء. فتعلم كيف تنسى وتعلم كيف تعفو. أقبل الليل. ويسهر المصباح والأقداح والذكرى معي وعيون الليل يخبو نورها في أدمعي.. الحب كده! وبصوته الرباني المعطر بالموهبة الخصوصي بنعومة الحرير وملمس الابتهال ورهبة المحلق في دعائه لخالقه يغني السنباطي ما لم تستطعه جميع الحناجر التي خلع عليها ألحانه. تنساب العبارات والعبرات في الأعماق وعلي الأسطح عندما يغني حاشدا مجامع حرقته ولوعته وورعه وصلاته ونسكه وتقواه ليرفع رسالته الوجدانية في خشوع للسماء: إله الكون سامحني أنا حيران..

عن الاهرام

السنباطي..
ميلاد عبقرية

جيل العمالقة .. جيل زكريا أحمد و محمد القصبجي و محمد عبد الوهاب و رياض السنباطي و أم كلثوم وأسمهان و فريد الأطرش غربت شمسه ومضى في رحلة العمر ولم يبق منه سوى ذكريات فنه الشامخ والمسرة التي صنعها للناس.
جيل العمالقة هذا الذي أرسى دعائم الغناء العربي في هذا القرن والذي ستعيش أجيال وأجيال على الثروات الفنية التي خلفها، سيظل العلامة البارزة في تراثنا الفني إلى الأبد.
رياض السنباطي والذي غاب في أيلول / سبتمبر/عام ١٩٨١ في زحمة الأحداث وغفا إغفاءته الأخيرة كان آخر العمالقة الكلاسيكيين المبدعين . لم تجرفه فوضى التجديد الإرتجالي ، ولم يجر وراء موجة الصراعات التي قامت على اللاشيء، واجتاحت إلى حين كل شيء دون أن تعطي ثمراً..رياض السنباطي هذا كان يحترم أسلافه الكبار، ويحترم العلم الذي جاؤوا به ، والعطاء الذي بذلوا من أجل الإرتفاع بالفن الموسيقي والغنائي ، وكان يقول : من يستطيع أن يأتي بشيء بعد سيد الكل سيد درويش ؟!.
من احترامه لأسلافه الكبار ومن غنى عطاءاتهم تدفق إبداعه في كل ضروب الأغنية العربية ، دون أن يخرج على قوالبها الفنية التي حمّلها
كثيرا من الضغط لتفي حاجات العصر، بدءاً من الأغنية الشعبية والطقطوقة ومروراً بالأغنية الدينية والمونولوج وإنتهاءً بالقصيدة التي يُعتبر سيدها المطلق.
من الصعب حصر أعماله في الأغنية العربية وتعدادها منذ أن مارس التلحين وإحترفه في أواخر عشرينيات هذا القرن ، والتي – كما قيل – تربو على ألف عمل غنائي وموسيقي، بالإضافة إلى سرد جانب من جوانب حياته وحياة أهل الطرب ، وإلقاء الضوء على فنه الشامخ ، وفن العمالقة الآخرين الذين عاصروه حتى وقف معهم على قمة الغناء الكلاسيكي ، متميزاً بمدرسته التي لا غنى عنها لأي ملحن يريد لشخصيته الفنية أن تكتمل ، قبل أن يحتل المكانة المرموقة التي يصبو إليها.
على يديه تخلصت الأغنية العربية من إبتذالها ، وعلى يديه إرتفعت بشاعرية قلما سما اليها ملحن عدا القصبجي ومحمد عبد الوهاب ، وربما كان لقاء القمتين – القصبجي والسنباطي– في فترة زمنية واحدة وتعايشهما في نظرتهما المشتركة لمستقبل الأغنية العربية من العوامل التي دفعت إلى إزدهار فن الغناء العربي على أيديهما ، إن في الأغنية الخفيفة والسينمائية أو في رومانسيات المونولوج والأغنية الطويلة أو في القصيدة التي شمخ بها بالذات السنباطي شموخا ، جعلت الملحنين حتى الكبار منهم يهابون تلحينها خوفا من عدم الإرتقاء بها إلى سفح القمم السنباطية .

نسب السنباطي

شهدت بلدة فارسكو و هي قرية صغيرة هادئة تقع جنوب غربي دمياط حدثاً هاماً في أوائل القرن العشرين، وهو ولادة الموسيقار الراحل رياض السنباطي و قبل أن نتوغل في مسيرة هذا الفنان الكبير و أعماله أحب أن أقف عند نسبه و تاريخ ولادته التي تم الاختلاف في تحديدها.
تعود نسبة اسم السنباطي إلى سنباط، أو كفر سنباط و هو كفر عجيب ليس كغيره من الكفور المتناثرة على أطراف القرى في الريف المصري .. إنه كفران كفر الغرباء و كفر الغجر ، و من كفر الغجر كانت تخرج الغوازي إلى كل مكان و عندما كنا نُسأل : من أين أنتن ؟! كُن يُجبن : من سنباط ..! إلى سنباط هذه ، يرجع نسب رياض السنباطي، أما لماذا، و كيف كانت ولادته في فارسكور ، فتقول الروايات إن جده لأبيه، نزح إلى هذه القرية و استقر فيها، بعد أن طابت له أسباب العيش. و كانت " فارسكور " تفتقر إلى من يملكون صوتاً جميلاً لإحياء حفلات المولد النبوي الشريف و الأفراح الأخرى، كما كانت القرى المجاورة تجلب المنشدين من المنصورة، أو من " البندر " الحواضر الكبيرة، كي تملأ الفراغ الذي تشكو منه في مثل هذه المناسبات. كان الشيخ محمد السنباطي والد رياض و فريد، هو أول من أحيا الموالد في هذا الضرب من الفن، و قد أورث ولديه العلوم التي يعرف، فنبغ فيها رياض من دون فريد ..

تاريخ ولادة رياض السنباطي

تقول مجلة " آخر ساعة " إن رياض السنباطي ، ولد في فارسكور في العام ١٩٠٦، و تقول " روز إليوسف " و مجلة " المجلة " إنه ولد في العام ١٩٠٨ ، بينما لم تتفق أكثر الصحف و المجلات العربية على تحديد تاريخ ولادته تماماً، و إن أجمعت في معظمها على التاريخين المذكورين ، دون أن تأخذ ، بما ذكره السنباطي نفسه عندما حدد تاريخ ولادته بقوله : ولدت في الثلاثين من مارس/آذار/عام ١٩١١ ببلدة فارسكور .
و يقول " للنهار العربي و الدولي " :
" ... أنا أعيش في القاهرة منذ خمسين سنة ، و عمري اليوم ثلاثة و سبعون عاماً ... " .
و على الرغم من تباين تاريخ الولادة الذي حدده صاحب السيرة، بالنسبة لولادته في العام ١٩١١، ثم بما رواه " للنهار العربي و الدولي " الذي يجعل تاريخ ولادته في العام ١٩٠٧، فإن شكاً كبيراً يطرح نفسه حول تاريخ ولادته الحقيقي. و هذا الشك لا يأتي عفواً ، و إنما من رياض السنباطي بالذات ، الذي قال أيضاً إن لقاءه الأول مع أم كلثوم تم قبل لقائه بها بخمسة عشر عاماً. فإن كان اللقاء الثاني قد تم كما تثبته أغنية " على بلدي المحبوب وديني " في العام ١٠٣٥، و هو تاريخ لا يقبل الجدل، فإن اللقاء الأول قد تم و عمر السنباطي على أساس ولادته في العام ١٩١١ لا يزيد عن التسع سنوات، و هو أمر غير معقول.
و إذا أخذنا بالتاريخ الثاني الذي يقول به ، لوجدنا عمره أحد عشر عاماً، و هو أيضاً أمر غير مقبول. و إذا نحن اعتبرنا التاريخين اللذين أجمعت عليهما الصحافة العربية، فإننا نجد أن عمر السنباطي كان عند لقائه الأول بأم كلثوم عشر سنوات، بالنسبة للتاريخ الأول، و مقبول نوعاً ما بالنسبة للتاريخ الثاني. و قد تكون الفترة الزمنية التي حددها السنباطي بخمسة عشر عاماً بين اللقاءين مبالغاً فيها بعض الشيء.
و إذا نحن تقصينا الحقيقة لوجدنا الاستاذ شفيق نعمة يقول في مجلة " الشبكة " : إن السنباطي كان في الثلاثين من عمره عندما تم اللقاء الثاني بينه و بين أم كلثوم، و لوجدنا أن مجلة " روز اليوسف " تحدد هذا اللقاء في العام ١٩٣٢. فإذا كان ما أورده الأستاذ " نعمة " صحيحاً ، فهذا يعني أن تاريخ ولادة السنباطي يقع في العام ١٩٠٢، و هو أمر مشكوك فيه أيضاً، لأن وثائق معهد الموسيقى العربية في القاهرة، تثبت بما لا يقبل الجدل أن السنباطي التحق بالمعهد المذكور كطالب و مدرس في العام ١٩٢٠، فلا يعقل و الحالة هذه أن يكون طالباً في المعهد المذكور، و هو على أبواب الثلاثين من سنين حياته . و إذا عدنا لقول السنباطي المذكور آنفاً، و الذي صرح به في العام ١٩٨٠ " للنهار العربي و الدولي " :
" أنا أعيش في القاهرة منذ خمسين عاماً و عمري اليوم ثلاثة و سبعون عاماً " لاكتشفنا أن السنباطي كان في الثالثه و العشرين من عمره عندما قطن القاهرة بصورة نهائية .
و إذا عدنا إلى اللقاء الأول الذي تم بينه و بين أم كلثوم في محطة " قرين غربية " لوجدنا، كما يقول الأستاذ " نعمة " : مع السنباطي فرقته المكونة من العازفين ، و مع أم كلثوم و أبيها بطانتهما من " الرديدة " و أن الشيخ السنباطي قال لابنه رياض :
" هذه يا رياض أم كلثوم التي نسمع عنها الآن، و عن شهرتها الكبيرة " .
و عند ذاك تقدم منها رياض مسلّماً، و ترافقا في القطار حتى مدينة المنصورة، فودعها مع أبيه، بينما تابعت هي رحلتها إلى بلدتها " طماي الزهايرة " .
و الذين كتبوا عن هذه الواقعة، أسندوا الفرقة للسنباطي دون تحديد ما إذا كانت لرياض أم لأبيه، و لما كان الشيخ محمد السنباطي آنذاك، أحد أعلام الغناء و التلحين في المنصورة، و من المطربين الأوائل، الذين استبدلوا " بطانة الرديدة " بالعازفين، فمن الطبيعي أن يكون رياض مطرباً و عازفاً على العود في فرقة أبيه، و ليس كما قيل و كُتب من أن الفرقة الموسيقية كانت له. كذلك فإن حديث الشيخ السنباطي عن شهرة أم كلثوم آنذاك، يسمح باعتبار أوائل العشرينيات التاريخ الذي تم فيه هذا اللقاء، و هو يتفق مع ولادة السنباطي التي حددتها " روز اليوسف " بالعام ١٩٠٨، كما يتفق مع عامي ١٩٢٢ و ١٩٢٣، و هو التاريخ الذي بلغ فيه رياض السنباطي الرابعة عشرة ، أو الخامسة عشرة من عمره ...
و في الحديث الذي أجراه الأستاذ سمير نصري مع رياض السنباطي يقول هذا الأخير عن لقائه الأول بأم كلثوم ما يلي:
" ... في هذا الوقت، كان عمري اثني عشر عاماً أو ثلاثة عشر عاماً ... كنت لا أزال صغيراً، لا أدرك... كان صوتي فيه بريق و لمعة جميلة جداً، و كان والدي يأخذني معه إلى الأفراح، و كنت أغني معه ... يقول وصلة، و أنا وصلة، حتى الفجر .. فاشتهرت شهرة جميلة في الضواحي – يقصد ضواحي المنصورة – و في هذا المكان بالذات كان أول لقاء لي مع أم كلثوم .. كان في محطة اسمها " قرين " بلد " البدراوي باشا عاشور " هذا الرجل الذي كان يملك خمسة و أربعين ألف فدان .. تصور .. يملك خمسة و أربعين ألف فدان ..! في هذه البلدة التقيت أم كلثوم .. كانت عائدة من فرح أنشدت فيه المولد النبوي ..

لحنها ظهرت في العام ١٩٣٥، و بعض النقاد يرجحون العام ١٩٣٤، فهذا يعني أن اللقاء الثاني تم في أحد هذين العامين، و بالتالي يكون تاريخ ولادة السنباطي في العام ١٩٠٨ أو في العام ١٩٠٩.

الأسطه حسن و الأستاذ شعبان

اشتهرت المنصورة منذ القديم بكرمها و جمالها ، وجمال نسائها ، وبحبها الفنانون وأهل الطرب ، وما تزال المنصورة حتى اليوم تتمتع بشهرة واسعة في هذا المضمار ، حتى قيل أن مشاهير الفنانين الذين تبؤوا مكانة مرموقة على المدى هم من المنصورة أو مروا فيها ونهلوا منها وهم في طريقهم إلى المجد .

إستقر الشيخ محمد السنباطي في المنصورة والحرب العالمية على وشك أن تضع أوزارها ، وكان رياض قد بلغ الثامنة من عمره عندما ألحقه أبوه بمدرسة الحي الإبتدائية التي كان لا يشغله عنها في ذهابه وإيابه منها سوى ذلك النجار المعروف بإسم الأسطه حسن الذي تقع دكانه في طريق المدرسة ، والذي دأب على الطنطنة بالعود أكثر من الإشتغال بمهنته . فيقف منصتاً لعزفه مدهوشاً بعض الوقت ، ثم المدرسة إلى دكان نجار من هواة العزف على العود وهكذا تلقيت دروسي الأولى في الفن على يد الأسطه حسن في ركن من الورشة ، وفي وسط الضجيج ، وفي بيئة كادحة .. وكان والدي موسيقياً محترفاً، برع في العزف على العود ويعتبر من البارزين في علوم الموسيقى....

وعلى الرغم من مشاغل الأب الشيخ بالحفلات ، كان يجد لديه متسعاً من الوقت للإهتمام بأسرته ، وخاصة رياض، الذي لفت إنتباهه أكثر من مرة بشغفه بالعود ، ومحاولاته المبتسرة في أداء الكثير من الألحان الشائعة ، فأولاه بعض العناية، وإشترط عليه حفظ القرآن الكريم والقصائد الدينية والمدائح النبوية ، ليعطيه دروساً جادةً على العود .

وهكذا أخذت دروس الشيخ محمد لإبنه تتخذ طابعاً جدياً في أعقاب كل سورة يحفظها أو قصيدة يرددها غيباً ، وكان التفوق في المدرسة والنجاح المستمر من الشروط الأساسية التي فرضها الشيخ على أسرته ، والذي أورث إبنه ذلك ، حتى عرف به ، وإشتهر فيه .

ولكن أبى رياض أن ينجح في المدرسة الأب الشيخ أن عليه أن يرعى موهبة إبنه الذي يطلب المزيد . فأخذ يلقنه الموشحات والأدوار القديمة الشهيرة لمحمد عثمان وعبده الحامولي والقباني والشيخ المسلوب . ثم عهد به إلى مدرس معروف ليدرسه العزف على العود، وهو الأستاذ محمد شعبان الذي يعمل مدرساً للموسيقى في مدارس المنصورة الإعدادية . ولكن هل إستطاع رياض أن يوفق بين المدرسة وكل هذه الأمور ...؟!

يقول رياض السنباطي

"في سن العاشرة أصبت بمرض في عيني حار الطبيب المعالج في تشخيصه وأخيراً إكتشف أنه مرض عصبي لا علاج له . إلا التجول في البلاد .. وهكذا قدر لي أن أترك المدرسة وأن أصاحب والدي في رحلاته إلى الاقاليم، وبعد إلحاح قبل والدي أن أغني في بعض الحفلات . وأذكر بأني بدأت بأغنية كانت مشهورة في ذلك العهد ، مطلعها "ناح الحمام والقمري على الغصون" ثم ثنيت بأغنية لداود حسني مطلعها " أنا أعشق في زماني " .

ويتابع السنباطي فيقول :

"وشهدت المنصورة فرقة موسيقية نفسه : "صبي منجد" في محاولة منه للإعتماد على نفسه في تسديد أجور أستاذه ، لأن إيرادات الحفلات الضئيلة كانت لاتكفي لتسد رمق الأسرة ومتطلباتها الضرورية . ولكن أباه الذي هزه هذا الأمر ، وبّخ إبنه وردّه إليه، وإستمر كعادته في تسديد نفقات المدريس شعبان الذي يدين له رياض بتلك المهارة في العزف على العود .

بلبل المنصورة

عندما إستقر الشيخ محمد السنباطي في المنصورة أقلع نهائياً عن إحياء الموالد ، وكون فرقة موسيقية صغيرة كان هو عمادها بالذات ، وإنصرف من خلالها إلى التلحين والغناء حتى غدا أفضل مطرب وملحن فيها . وكان يلبي جميع الأفراح الخاصة والعامة في المنصورة أو في ضواحيها لقاء أجرمعلوم ، فيغني بعضاً من ألحانه، إلى جانب ألحان المشاهير من معاصريه . غير أن إصراره على البقاء في المنصورة قصر شهرته عليها وعلى جوارها من حواضر الريف المصري ، وبرغم هذا كان معروفا في القاهرة والإسكندرية معرفة تامة لشيوع ألحانه وتقديمها من قبل بعض المشتغلين بالموسيقى والغناء من أصدقائه.

كان الشيخ محمد السنباطي في أوج عصره في المنصورة عندما قدّم إبنه رياض ليغني بعده في إحدى الحفلات وكانت دهشة المستمعين الذين حضروا الحفلة كبيرة ، فهم لم يتوقعوا من الفتى رياض أن يغني بصوته الرقيق الهادئ أعمالاً لداود حسني ومحمد عثمان . ويتحدث السنباطي عن تلك الأيام السعيدة فيقول:

"في ذلك الوقت كان عمري إثني عشر أو ثلاثة عشر عاماً ..كنت لا أزال صغيراً لا أدرك . كنت أغني مع أبي حتى الفجر ..بغني من تلحين محمد عثمان وداود حسني وإبراهيم القبالى والجماعة دول ، فإشتهرت شهرة كبيرة في المنصورة حتى لقبوني ببلبل المنصورة .. ومن الأغاني التي كنت أغني (ناح الحمام والقمري على الغصون) وأغنية لداود حسني (أنا أعشق في زماني) مع موشحات كثيرة علمني إياها والدي رحمه الله.

هكذا أخذ رياض السنباطي الذي دأب على غناء ألحان أبيه وغير أبيه من المشاهير ، يشق طريقه إلى الناس من خلال الحفلات الكثيرة التي يُدعى لإحيائها ، سواءً في المنصورة أو في القرى المحيطة بها أو الأخرى البعيدة التي تقع على خط سكة الحديد .

كانت تلك السنوات من أسعد أيام صباه ، كان يهزه التصفيق الطويل والهتاف المُلح ، لإستعادة العزف والغناء ..كان ساحراً في العزف وشاعراً في الغناء ،غير أن أحلامه ما كانت تستطيع المنصورة ونواحيها وحواضرها إستيعابها .. كانت أحلامه تتجه دوماً إلى القاهرة التي يتربع على عرش الطرب فيها أعلام لايستطيع مفارعتهم ..لقد أطلق عليه الناس في المنصورة إسم بلبل المنصورة فلماذا لايغرد هذا البلبل في القاهرة ؟ .. بل لماذا توقف فجأة عن الغناء بعد أن حزم أمره على الإنتقال إلى القاهرة؟!.

يقول رياض السنباطي:

" ثم مرضت مرةً ثانية ... وكان المرض في هذه المرة التيفوئيد .. وطال المرض وإشتدت الحمى ثم شاء ربك أن ينعم علي بالشفاء ، ولكني ما كدت أسترد صحتي ، حتى فاجأت أهلي مفاجأة أذهلتهم ، إذ قررت عدم العودة إلى الغناء ،لأني شعرت أن المرض أفقد صوتي الكثير من طراوته ونعومته ..نعم ، إلى هذا الحد أوصلني التيفوئيد" ...

كانت تقرأ المولد لابسة العقال وأنا راجع من فرح ، فتقابلنا و نحن ننتظر القطار، وكنا طفلين، لكنها كانت تكبرني بخمس أو ست سنوات، كانت وقتها في السادسة عشرة أو السابعة عشرة .. و بزغ اسم أم كلثوم، و اسمها أصبح يتردد على كل لسان، لدرجة أني شعرت بالغيرة. كيف أم كلثوم هذه تلمع ، و أنا ... " .

لقد حدد السنباطي جازماً أنه كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من عمره، عندما التقاها لأول مرة، فإذا كان لقاؤه الثاني قد تم في العام ١٩٣٢، فهذا يعني أن اللقاء الأول تم في العالم ١٩١٧، و إذا أخذنا بما قاله عن عمره آنذاك فيكون تاريخ ولادته على هذا الأساس في العام ١٩٠٥، و لما كانت أغنية " على بلدي المحبوب " التي يقفل عائداً إلى البيت ليجرب ماإستمع إليه على عود أبيه ، وحين بلغ التاسعة من عمره كان ما تعلمه من الأسطه حسن حافزاً للسعي وراء المزيد من المعرفة ، وكانت صداقته للأسطه حسن التي بدأت بالنظر والإستماع قد أخذت تتوطد يوماً بعد يوم ، حتى أنه صار يهرب من المدرسة ليتعلم منه ما يعرف ..إن ذكرى هذا النجار ظلت ماثلة في خيال رياض حتى آخر أيامه وكان يذكره بالحسنى دون أن ينسى الإشارة إلى عزفه السيئ والركيك .

وفي حديث صحفي يروي رياض السنباطي الحادثة فيقول:

" في سن الثامنة رحلت مع والدي من فارسكو إلى المنصورة وحدث لي مايحدث عادةً لكل هاو للفن ... كنت أهرب من والموسيقى تشغل كل مشاعره و أحاسيسه. كانت تدريبات الشيخ محمد السنباطي مع فرقته وبطانته "من الرديدة" تتم في البيت ، وكانت هذه تتيح لرياض إشباع نهمه بالموسيقى ، فكان يتلقف كل شيء ويحفظ كل شيء دون أن يدرك أن ما يحفظه من الموشحات وأدوار ومدائح وأغان شائعة هي المفاتيح التي ستقوده إلى المجد الذي لم يكن يفكر فيه قدر تفكيره بأن يصبح مطرب المنصورة الوحيد .

في هذا الجو الموسيقي البحت كانت موهبته تتنامى لتقف أمام علوم الأب عاجزةً .. لقد حفظ أجزاء من القرآن بقراءاته السبع وأتقن أصول التجويد وإلتهم كل معلومات أبيه الموسيقية وهو لا يزال بعدُ في العاشرة من عمره ، وأدرك يتوسطها طفل صغير ،ثم أخذت هذه الفرقة في التجوال من قرية إلى قرية ، لتحيي الحفلات والأفراح في بيوت الأعيان ، مرة نظير أجر ضئيل متواضع ومرات في سبيل الفن . في هذه الفترة عهد بي أبي إلى الأستاذ محمد شعبان لكي أتلقى على يديه أصول العزف والغناء".

كانت فرحة رياض السنباطي بهجر المدرسة نهائياً أكبر من فرحته بموافقة أبيه ، فقد إستطاع أخيرا أن ينصرف كلياً إلى الموسيقى والغناء اللذين يملكان عليه كل مشاعره وأحاسيسه ، وسيلازم منذ الآن أباه في حله وترحاله .

وفي تلك الفترة من حياته أراد رياض أن يخفف عبء المصاريف عن أبيه فعمل صانعاً ، أو كما يقول رياض السنباطي

الطقاطيق الماجنة و موقف محمد عبد الوهاب والسنباطي منها

لم يقتصر تأثر السنباطي بأسلوب القصبجي على المونولوج ، بل سحب هذا التأثير وجعله يمتد ليشمل الطقطوطة فنا، فقد وجّه حدسه الفني و رفضه المعنوي للطقاطيق التي كانت شائعة آنذاك نظماً ولحناً كثيراً من الإبتذال و الإسفاف ، وكان يغني هذه الطقاطيق جميع المطربين و المطربات دون إستثناء ، من أمثال منيرة المهدية و نادرة و فاطمة سري و نعيمة المصرية و سعاد محاسن وسميحة البغدادية و فريدة مخيش و عزيزة حلمي و صالح عبد الحي و غيرهم . فغنت منيرة المهدية من كلمات يونس القاضي وألحان زكريا أحمد طقطوقة "ارخي الستارة اللي في ريحنا" ثم طقطوقة "بعد العشا يحلا الهزار و الفرشة" من ألحان القصبجي . وتعتبر هاتان الطقطوقتان من الطقاطيق المهذبة جداً إذا ما قيستا بالطقاطيق الأخرى التي لحنها زكي مراد لنعيمة المصرية مثل طقطوقة "أنا نايمة" وطقطوقة "أنا بنت خفة وأختشي" لعزيزة حلمي أو مثل طقطوقة "والنبي توبة" التي لحنها زكريا أحمد لنعيمة المصرية، هي :

والنبي توبة ماني شاربه معاك دي كانت نوبة وعرفت هواك

والنبي توبة

أو التي لحنها داود حسني لـ سعاد محاسن :

أنا عندي معاد في الدهبية إن جه سأل حد عليه

أو تلك التي لحنها جميل عويس لـ سميحة البغدادية "علي سرير النوم دلعني" ولـ فريدة مخيش "فين حزامي يا نينه" .

إن كل هذه الطقاطيق جعلت السناطي ينأى بفنه عنها ، ويترفع حتى عن التفكير في التلحين على غرارها ، فأرضيته القروية ، وجذوره الدينية ، وأخلاقياته الخاصة ، كل هذا باعد بينه وبين الفن الخليع الذي انحدر إليه فن الطقطوقة ... لقد اكتشف بحسه الفني السليم وهو بعد ما زال في أول الطريق أن هذا النوع من الغناء الفني ينحط بالمستوى الفني للغناء عموماً ، لأنه يحرك الغرائز والشهوات ، ويدفع عن طريقها بكل أنواع الغناء إلى الحضيض ، لسيطرة هذا النوع على كل ما عداه ، ولو إقتصر الأمر في أدائها على المخمورين والسكارى في الصالات والملاهي الرخيصة لهان الأمر ، ولكن الأمر تجاوز الصالات و الملاهي إلى شركات الإسطوانات الطامعة إلى مزيد من الأرباح ، فشجعت المطربين والمطربات وكتاب الأغاني والملحنين على إعطاء المزيد ، وقامت بتسجيل تلك الأغاني على إسطوانات كانت تدخل كل بيت بإعتبار الأسطوانات من الإختراعات الفنية الثقافية التي كانت مرغوبة آنذاك ، وتشبه في أيامنا هذه أجهزة الفيديو و الراديو والتلفزيون ، ومن هنا كان خطر تسجيل تلك الأغاني على تربية الناشئة المتعلقة بحواسها ومشاعرها و متطلباتها . من خلال الشواهد السمعية التي نقبنا عنها والتي تعود إلى أواخر العشرينيات وسني الثلاثينيات لم نعثر للسنباطي على لحن واحد من هذا النوع ، يدينه أو يقلل من قيمته الفنية ، فهل رفض أن ينحدر بفنه إلى هذا المستوى عن سابق تصور وتصميم وهو بعد مازال ناشئاً ، على الرغم من إنحدار داود حسني و زكريا أحمد و صبري النجريدي و جميل عويس ومحمد القصبجي إلى هذا الدرك، أم ماذا؟

من الثابت أن محمد القصبجي لم يعط لحناً واحدا من هذا النوع بعد مونولوج "إن كنت أسامح" وإرتفع منذ تلك الأغنية إلى مشارف لم يلحق بها أحد . ويمكن القول أن موجة هذه الألحان ركبها الملحنون كافة ، وأن المشاهير من المطربين والمطربات (عدا أم كلثوم وعبد الوهاب) قد تهافتوا تهافت الذباب على الثريد ، وإن السنباطي فنانا يطمح إلى الشهرة وإلى أداء المشاهير إلى ألحانه لم يعط شيئا منها ، فهل لم يعرض عليه أحد أن يلحن له ، أم رفض أن يلحن هذا النوع من النظم الرخيص و المبتذل ؟!

دون شك كان السنباطي من الرافضين ، شأنه في ذلك شأن محمد عبد الوهاب ، وهو رفض تلقائي إنبثق من تربيته الدينية ، ومن بيئته القروية ، ومن أخلاقياته التي ورثها من إيمانه الديني العميق.

السنباطي عازف عود في تخت محمد عبد الوهاب

إحتاج محمد عبد الوهاب في أواخر العام ١٩٣٣ عازف عود متمكن من أجل تسجيل أغاني فيلمه (الوردة البيضاء) لم يجد أمامه سوى السنباطي الذي أجمعت عليه الآراء كأقوى و أبرع عازف عود . و قد ظهر السنباطي في الفيلم المذكور ، ومثل فيه بالإضافة إلى قيامه بالعزف مع تخت محمد عبد الوهاب مشهداً قصيراً جداً ، ويتحدث السنباطي عن ذلك فيقول :

«..... لقد كنت ضمن أفراد التخت الذي صاحبه في أغاني الوردة البيضاء ، بل أنني ظهرت في الفيلم في مشهد لم يستغرق سوى نصف دقيقة ، وكان المشهد لفرقة (محمد أفندي) بطل الفيلم الذي هو محمد عبد الوهاب حتى نعزف له أغنية (النيل نجاشي) ولما تأخر عن حضور البروفة ، وقفت أنا كما تقضي حوادث الفيلم محتجاً و قائلا : مش معقول ننتظر أكثر من ده..... وكان هذا أول ظهور لي في السينما».

وللحقيقة والتاريخ ، فإن الإعجاب كان متبادلاً بين الإثنين ، وكان السنباطي يغني بعض أغاني محمد عبد الوهاب في حفلات المعهد الشهرية، وفي السهرات الخاصة ، غير أن الذي إختار السنباطي للعزف في الفيلم المذكور لم يكن محمد عبد الوهاب ، وإنما قائد فرقته (التخت الشرقي) الفنان العربي السوري الكبير(جميل عويس) . ومنذ قيام السنباطي بتسجيل أغاني فيلم الوردة البيضاء على عوده أخذ محمد عبد الوهاب يشيد بمقدرة السنباطي وبراعته وموهبته في العزف ، ويجب أن لاننسى أن جميع المقاطع الموسيقية التي إنفرد بها العود خلال غناء محمد عبد الوهاب لأغاني الفيلم كانت من أداء السنباطي ، مثال ذلك أداء العود في مونولوج (ضحيت غرامي عشان هناكي) وغيرها من الأغنيات إضافة للموسيقى التي رافقت مشاهد الفيلم ، وبخاصة مقطوعة (لغة الكيتار).

كان لقاء السنباطي بمحمد عبد الوهاب في العام ١٩٣٣ أول لقاء له بعد لقائه بأم كلثوم . وكان عبد الوهاب يمثل قمة الغناء العربي ، بينما كان السنباطي يشق طريقه في سماء الفن كمطرب وملحن وعازف ، بأناه وصبر ، وبرغم الإعجاب المتبادل بين الإثنين والحماسة لبعضهما البعض ، فقد شاءت الظروف أن تشوب سماء هذا الإعجاب الغيوم ، وأن تتكاثر وتتلبد أكثر فأكثر بسبب أم كلثوم ، التي أخذت بالإعتماد على السنباطي في أغانيها ، فتقلصت العلاقة التي بدأت بينهما بإندفاع من الجانبين ، لتغدو نوعاً من المجاملات ، ولتتحول مع الزمن إلى نوع من الغمز في التصريحات المهذبة التي كانا يطلقانها رداً على بعضهما في المناسبات ، لتغدو نوعاً من التجريح ، مثال ذلك التصريح الذي أدلى به محمد عبد الوهاب لمجلة أخبار اليوم في السنة الأولى لصدورها بأن السنباطي عازف عود لايجارى وملحن قوي في الأعمال الدينية ..

هذ القول يعني أن السنباطي لايصلح في التلحين لغير الأعمال الدينية . وأخلاقيات السنباطي كانت فوق هذا اللغو الذي أريد به باطلاً .. فعبد الوهاب الذي بلغ الأوج في صراعه مع أم كلثوم على زعامة الساحة الموسيقية ، كان يوزع التصريحات الجارحة المهذبة بطريقة ذكية ، كما يقول لمجلة (الاستديو) التي كانت تصدر عن (دار الحبيب) واختصت بالقضايا الفنية وبخاصة السينمائية أن محمد القصبجي أبرع عازفي العود ، وهو بقوله هذا نال من القصبجي كملحن عندما قصر موهبته على عزف العود ، مع أن الذي علمه عزف العود هو محمد القصبجي ، أستاذ أساتذة هذا الفن.

أم كلثوم التي ملّت العراك المستور الذي لاتجيده ، والذي ينال بإستمرار من ملحنيها إستدعت السنباطي في ثورة غضب وطلبت منه أن يلحن كل القصائد التي سبق وغناها محمد عبد الوهاب لتغنيها .

ويحدثنا الأستاذ إبراهيم الخوري في الشبكة عن هذه الواقعة بما سمعه في سهرة خاصة أقامها السفير الكويتي على شرف السنباطي عام ١٩٨٠ ، فيقول أن أحد الساهرين قال للسنباطي ضاحكاً بعد أن روى له قصة قصيدة سلوا كؤوس الطلا :

«كنا نعتقد أن أحمد شوقي يحب محمد عبد الوهاب وحده ، فإذا به يحب أم كلثوم أيضاً» ... فضحك السنباطي وقال : «كلهم كانوا يعتقدون أن رياض السنباطي يحب أم كلثوم وحدها بينما أنا أحب عبد الوهاب أيضاً».

فقلت له : هذا حدث ؟

فقال السنباطي : « هذا قديم .. وللمناسبة أحب أن أكشف سراً أعلنه للمرة الأولى في حياتي ، عندما إشتد التنافس بين أم كلثوم و محمد عبد الوهاب في عز شبابهما ، طلبت مني أم كلثوم أن أجمع معظم أغاني عبد الوهاب الناجحة وأعيد تلحينها بنفسي لتغنيها أم كلثوم .. ولكنني رفضت الإقدام على هذا العمل حباً مني لمحمد عبد الوهاب و تقديراً لصوته العظيم ...»

وسأله جورج الخوري :

وماذا تفعل بالشعراء الذين نظموا تلك الأغاني لعبد الوهاب ؟ هل كانوا سيوافقون على فعلتك لو أنك رضخت لطلب أم كلثوم؟

قال السنباطي : «كانت أم كلثوم ستختار أشعار أحمد شوقي فقط التي أنشدها عبد الوهاب .. وأحمد شوقي كان قد مات ..... «

لقاء السنباطي بأم كلثوم

اختلفت الروايات عن اللقاء الثاني الذي تم بعد خمسة عشر عاماً مضت على اللقاء الأول الذي يقول السنباطي:

"لم يكن أول لقاء بيننا في القاهرة ، بل كان ذلك أيام طفولتنا ، ومازلت أذكر تفاصيل هذا اللقاء .. كان في ليلة ممطرة في محطة سكة الحديد الدلتا في قرية "قرين" بمحافظة الدقهلية . وكانت أم كلثوم تضع فوق رأسها عقالاً عربياً ، وترتدي معطفاً من وبر الجمل ، وقد وقفت بين أبيها وشقيقها الشيخ خالد ، وكانت أم كلثوم ترتعد من شدة البرد، وإندمج والدي مع والدها في حديث عن الغناء والحفلات ، بينما تجاذبنا أطراف الحديث ، حتى وصل القطار الذي كان مزدحماً بالركاب وترافقنا في القطار ، ثم إفترقنا بسبب الزحام..."

يقول الأستاذ شفيق نعمت عن اللقاء الثاني الذي تم في القاهرة بين أم كلثوم والسنباطي ما يلي:

"كان رياض في الثلاثين من عمره ، وكانت أم كلثوم قد سمعته في أغنية مُذاعة من ألحانه عنوانها "يا ريتك حبيتني زي ما حبيتك" وعندما أعجبت باللحن طلبته هاتفياً ، وحددت له موعداً لزيارتها في منزلها ، وكان لقاءً جميلاً بعد هذه السنوات ،عرضت فيه أن يلحن لها فرحب بالعرض ، وكان في منتهى السعادة ، وسلمته كلمات أول أغنية نظمها لها من نظم "أحمد رامي" ومطلعها "يا طول عذابي و اشتياقي ".

أما الأستاذ جبرائيل سعادة فينقل عن نور الهدى ما سمعه منها عن هذا اللقاء:

"كان رياض يومذاك في مقر شركة أوديون للأسطوانات ، يقوم بتسجيل أغنية كان قد لحنها لينشدها بصوته ، هي أغنية (على بلدي المحبوب ودّيني) وإذا بأم كلثوم تحضر إلى المكان لأمور تتعلق بتسجيل أغاني فيلم (وداد) الذي كانت تقوم بتمثيله فأسمعها مدير الشركة الأغنية التي كان السنباطي قد سجلها فأعجبت بها كل الإعجاب وأبدت رغبتها في استخدامها في فيلم (وداد) وقد غنتها فعلا في الفيلم المذكور ".

شيخ الملحنين زكريا أحمد يروي في مذكراته عن هذا اللقاء مايلي :

"..كنا في بيت أم كلثوم أنا والقصبجي ، عندما جاء لزيارة أم كلثوم السيد باروخ مدير شركة أسطوانات أوديون وفي هذا اللقاء أدركت أن ملحني أم كلثوم أصبحوا ثلاثة :السنباطي ، القصبجي و أنا.....".

إذا ما ناقشنا الأقوال المذكورة آنفاً على أساس الواقع الثابت الذي لدينا ، لوجدنا أن ما ذهب اليه زكريا أحمد يتفق مع الواقع ، على الرغم من أنه لم يحدد تاريخاً معيناً .. قد تكون أم كلثوم أعجبت بلحن السنباطي لأغنية (يا ريتك حبيتني زي ما حبيتك) الذي غناه أحمد عبد القادر ، وأن تكون إتصلت به هاتفياً و غير أن الزيارة التي تحدث عنها شفيق نعمة مشكوك فيها كأول زيارة،لأن الزيارة الأولى تمت في العام ١٩٣٢ ، بينما الأغنية التي أعجبت بها أذيعت في الأذاعة في العام ١٩٣٤ ، كذلك الأمر بالنسبة لمونولوج " ياطول عذابي" الذي ظهر أول ما ظهر في العام ١٩٤١ ، وهو تاريخ بعيد جداً عن العام ١٩٣٤ الذي تم فيه ذلك اللقاء ، وعلى هذا فإن كل الذي أورده الأستاذ شفيق نعمة غير وارد على الإطلاق ، أما نور الهدى التي روت ما روت عن ذلك اللقاء فلاتستقيم روايتها مع الوقائع ، فهي لم تذكر أن اللقاء قد تم بينهما ، وإنما قالت أن أم كلثوم إستمعت إلى تسجيل أغنية (على بلدي المحبوب بصوته) وأنها أعجبت باللحن وأبدت رغبتها في إدخال الأغنية في فيلم (وداد) بينما في واقع الحال لم تعجب باللحن، والأغنية كانت مدرجة في الفيلم الذي تم إنتاجه عام ١٩٣٥ ، كما أن السنباطي لم يسجل هذه الأغنية بصوته إطلاقاً ، وإنما سُجلت أول ماسُجلت بصوت المطرب عبده السروجي ، ومن هنا تبين لنا أن ماذهبت إليه نور الهدى لم يكن صحيحاً ، والشيء الوحيد الصادق في هذه الواقعة هو لقاء السنباطي بأم كلثوم كما ذكر السنباطي نفسه ، وهو الشيء الذي لم تشر إليه نور الهدى في روايتها ،إذ يقول في اللقاء الذي أجرته معه مجلة المجلة مايلي:

"...كان اللقاء في العام ١٩٣٢ في مقر إحدى شركات الأسطوانات، وكان إسمها أوديون وكانت هذه الشركة تحتكر أغاني أم كلثوم ، فعهدت إلى بتلحين (النوم يداعب) ورحبت أم كلثوم بأن ألحن لها بعد أن إستمعت إلى الأغنيات التي لحنتها قبل ذلك.."

وفي حوار قديم أجراه معه (يوسف شهدي) عام ١٩٥٤ حول لقائه بأم كلثوم يقول السنباطي :

" سمعتها كما سمعها الملايين ، وعشقتها كما عشقها الملايين ، إلى أن جاء من يقول لي أن ثومة سمعتك في الإذاعة وتريد رؤيتك ، وكنت في ذلك الوقت ممتلئا بالحماسة وفي رأسي أنغام وموسيقى لا تجد لها متنفساً ، ولا أعثر على من يغنيها ... ولم أكن أتصور إنني بعد مجيئي إلى القاهرة بفترة قصيرة سأقوم بالتلحين لكوكب الشرق ..لأم كلثوم نفسها.. ولكن أم كلثوم قدمت لي أغنية (النوم يداعب عيون حبيبي) وكلفتني بتلحينها فلم أتردد ، وكانت تلك أول قطرات الغيث ، فقد لاقت نجاحاً كبيراً ، ومن يومها وأنا أسكب في أغاني ثومة ، عصارة فني وروحي ، لحنت لها قصائد ومونولوجات وأناشيد وطنية ، وكان كل منها يختلف عن اللحن الآخر روحاً ومعنى..."

دون شك رواية السنباطي عن هذا اللقاء الذي لم يحدد له تاريخا معينا هي أصدق رواية، لأنها جاءت من صاحب السيرة نفسه وهو في أوج عطائه، كذلك فإن ما رواه زكريا أحمد عن الزيارة السنباطي الأولى لأم كلثوم يعتبر أكثر من صادق ، لأنها جاءت من مذكرات رجل لم يزاحمه أحد على مجده ، والمذكرات الشخصية مهما كانت متميزة عاطفياً تكون دائماً صادقة ، ويتجلي صدق زكريا أحمد في تصنيفه للملحنين الذين ستستعين بهم أم كلثوم في تلحين أغانيها عندما قال:

"... وفي هذا اللقاء أدركت أن ملحني أم كلثوم أصبحوا ثلاثة :السنباطي ، القصبجي و أنا ..".

وقوله يعني أن السنباطي غدا الملحن الأول ، ومن ثم القصبجي فزكريا أحمد . ومن جهة ثانية يؤكد أن زيارة السنباطي الأولى لأم كلثوم تمت بعد لقائه بها في شركة أوديون للأسطوانات الذي ذكره السنباطي نفسه.

ورداً على الأستاذ شفيق نعمة أيضاً حول إتصال أم كلثوم بالسنباطي ودعوته لزيارتها وإعطائه أغنية (يا طول عذابي) ليلحنها ، يقول السنباطي في حديث أدلى به لمجلة المجلة مايلي :

"...كان أول عمل لي مع أم كلثوم هو أغنية (النوم يداعب عيون حبيبي)، يومها أحضرت لي الكلمات لتسألني رأيي فيها ..كانت لأحمد رامي –رحمه الله– ..راقتني الكلمات ولحنتها ، وكان هذا باكورة ألحاني للمرحومة سيدة الغناء العربي .. ثم لحنت لها أغنية إشتهرت بعد ذلك الوقت (على بلدي المحبوب وديني) ، وبعد ذلك تعمقنا في القصائد الدينية والعاطفية.."

في هذا القول للسنباطي نكتشف أن ماذكره كل من زكريا أحمد و السنباطي حول اللقاء الأول في القاهرة مع أم كلثوم هو الصحيح ، ونكتشف أيضاً أن المطربين والمطربات هم الذين كانوا يسعون اليها ، فأم كلثوم كما يقول السنباطي زارته في البيت لترى رأيه في نص أحمد رامي ، ولتطلب منه أن يقوم بتلحين ذلك المونولوج الرائع كأول عمل جاد بينهما....

يتبين لنا من كل ماسردناه آنفاً ، إن اللقاء الثاني بين أم كلثوم و السنباطي تم في أواخر العام ١٩٣٢ ، وفي بيتها ، وأنها زارته فيما بعد في منزله لتطلب اليه تلحين (النوم يداعب) . وبالرجوع إلى تاريخ صدور هذه الأغنية مطبوعة على اسطوانات شركة أوديون يتضح أن زيارة أم كلثوم للسنباطي تمت في أواخر ١٩٣٢ ، وأن الأغنية المذكورة غنتها أم كلثوم في العام ١٩٣٤ نفسه ، قبل أن تظهر مطبوعة على اسطوانة قياس ٣٠ سم لحساب شركة أوديون في العام ١٩٣٥ ، ومرة ثانية في العام ١٩٣٦

عندما تصدى السنباطي لتلحين هذا المونولوج كان يدرك تماماً بأنه يدخل في معركة حاسمة بالنسبة إليه ، فمحمد القصبجي سيد المونولوج على الإطلاق، وقف على القمة بعد روائعه التي أعطى (إن كنت أسامح) (ياما ناديت) (طالت ليالي البعد) (يا نجم) (فين العيون) ومحمد عبد الوهاب كان يقف على القمة المقابلة بصوته وألحانه وروائعه ، هو الآخر رائع كما في (الهوان وياك معزة) (ياترى يا نسمة) (بلبل حيران) (مريت على بيت الحبايب) . أما زكريا أحمد فقد أعطى كل نفيس في المونولوج الذي زاحم فيه ما أعطاه زميلاه، ولعل أبرز مونولوج غنته له أم كلثوم في تلك الفترة هو مونولوج (ياما أمر الفراق).

إستفاد السنباطي الذي سبق ولحن عددا من المونولوجات لكل من نادرة و فتحية أحمد وعبد الغني السيد، وأحمد عبد القادر من تجربته الشخصية في تلحين المونولوج وتجربة القصبجي بالذات ، بدءاً من مونولوج (إن كنت أسامح) وإنتهاءً بآخر أعماله في تلك الفترة (يا غائباً عن عيوني) وعني عناية خاصة بأعمال محمد عبد الوهاب التي كانت تختلف عن أسلوب القصبجي ، ومن هنا أثرى تجربته في التلحين ، وعرف كيف يتصدى لتلحين هذا المونولوج وكيف يكرس تجارب الآخرين لخدمة فنه ، فأغنى بإبداع كبير المونولوج المذكور باللوازم الموسيقية المشرقة الحديثة في كل شيء وبالجمل الموسيقية التي قطع بها صدر البيت وعجزه، وبين الكلمة والكلمة في بعض الأحيان دون إعادة أو تكرار– كما فعل غيره – وسخّر أحرف المد الصوتية الثلاثة في التلحين ليستفيد من طاقة أم كلثوم الصوتية ، وخلق تبايناً إنسجامياً بين قرار صوت أم كلثوم و جوابه في المحط المقامي ، وبين اللوازم الموسيقية التي جاءت في جوابات قرار صوت أم كلثوم ، وفي قرارات جواب صوتها أيضاً ، من خلال التوافقات البليغة في كل قفل غنائي ، واستخدم ما يعرف بالغمز على الأوتار لأول مرة في تاريخ الغناء العربي – بيزيكاتو – بصورة يبدو معها اللحن و كأنه خلفية هارمونية لمد أم كلثوم الصوتي الذي أتاح للحن أن يطفو على السطح شيئاً فشيئاً ، حتى أشرق لامعاً بعد أن استقر صوتها على القفل المثير في غنائها:

و الأداء الكلثومي للحن كان أكثر من شاعري ، وهو دون شك أنهك السنباطي حتى إستطاع أن يلقنها إياه لصعوبته ودقته ، إذ من المعروف عن مطربينا ومطرباتنا عدم إجادتهم لقراءة التدوين الموسيقي لجهلهم ماهية النوتة الموسيقية حتى الآن ، ويمكن إستثناء من المطربين و المطربات الذين يجيدون العزف والقراءة الصولفائية كـ مطربة العواطف "ملك" التي كانت تلحن لنفسها ، وتقدم حفلاتها الشهيرة في مسرحها في القاهرة في يوم السبت الأول ، و "بهيجة حافظ" التي كانت تجيد العزف على البيانو ، وتملك صوتاً جميلاً ، ولكنها فضلت إحتراف التمثيل على الغناء ، بسبب جمالها وهوايتها و "يولاند أسمر" المعروفة في القطر العربي السوري بإسم "بسمة" و المطربة الشهيرة "فيروز" التي تعلمت الصولفيج في الكنيسة المارونية التي كانت تتردد عليها . وعدا هؤلاء كان جميع المطربين والمطربات لا يعرفون شيئاً عن التدوين الموسيقي ، ناهيك عن قراءته كلحن غنائي ، الأمر الذي كان يدفع الملحنين إلى تحفيظ المطربات والمطربين الألحان التي وضعوا ، وقد ظلت هذه الطريقة هي السائدة حتى منتصف الخمسينيات ، ومن ثم إستبدلت بأجهزة التسجيل ، بعد إنتشار أجهزة التسجيل على نطاق واسع ، وغزوها للحياة الموسيقية ، فصار الملحن يسجل الأغنية بصوته وعلى عوده ، ويرسل بها إلى المطرب أو المطربة ، ليتم حفظه كما جاء بصوت الملحن على الشريط المسجل . وعندما تنتهي عملية التحفيظ بهذه الطريقة يشرف الملحن على التمارين مع الفرقة الموسيقية ، فيضع اللمسات الأخيرة ليضفي على اللحن مزيداً من الجمال ، قبل أن يظهر بصورته النهائية .

في العام نفسه الذي وضع فيه أول ألحانه لأم كلثوم ، تخرج من المعهد ، وفي الوقت نفسه إحتفظ بوظيفته كمدرس لآلة العود . وفي حفلة التخرج قدم لأول مرة معزوفة إستهل بها وصلة الغناء الشهرية ، هذه المقطوعة كتبها بقالب اللونغا التراثي من مقام النهوند وقد عرفت فيما بعد بإسم "لونغا رياض" نسبةً اليه.

كانت هذه المقطوعة مفاجأة لأساتذة المعهد وللجمهور الذي حضر الحفلة ، إذ برهن من خلالها على طول باعه في الأعمال التراثية ، وأنه يمكن للفنان الواعي لفنه يتحدث من وراء القوالب التراثية بلغة عصره ، وهذا ما فشل فيه معاصره محمد عبد الوهاب في السماعيات التي ألف ، والتي ظل يدور فيها بلغة الماضي ، واللونغا كعمل فني دقيق وخفيف ومرح وذي إيقاع ثنائي سريع ، تتطلب مهارة خاصة في التأليف ، ولا أعرف لونغا واحدة منذ ولادة "لونغا رياض" إستطاعت أن تثبت وجودها وأن تتحدث بلغة العصر وأن تدعم هذا الفن سوى أعمال ضئيلة كـ "لونغا نهاوند" لعبد العزيز محمد و "لونغا فرح" لممدوح السمّان و "لونغا عجم" لجميل عويس و"لونغا راست" لمحمد عبد الكريم .

دخلت لونغا رياض في برامج المعاهد الخاصة والرسمية في كل الوطن العربي تقريباً . وغدت علامة في تخرّج الطالب العازف ، وما تزال هذه المقطوعة الساحرة حتى اليوم تتحدى عامل الزمن لأنها تحدثت بلغة العصر.

السنباطي الرقيق وإذاعة ماركوني

انتشر المذياع أول ما انتشر في الشرق العربي في مصر ، ثم إنتقل منها إلى جميع الأقطار العربية ، فقد تأسست في القاهرة منذ العام ١٩٣٢ عدة إذاعات خاصة كان يملكها عدد من المستثمرين الذين كان هدفهم الربح أكثر من تقديم الأعمال الفنية والثقافية ، وظلت هذه الإذاعات الخاصة الآخذة بالإزدياد تعمل دون رقيب أو حسيب أو وازع من ضمير ، وتستأثر بالشارع حتى العام ١٩٣٤ ، عندما قررت الحكومة المصرية وضع حد لهذه الفوضى في الإذاعات ، فأنشأت في بداية الأمر شركة مساهمة ، إستطاعت أن تنال لوحدها حقوق إستغلال الإذاعة في مصر من مخترعها الإيطالي (ماركوني) . فأقامت أجهزتها الفنية في مكان قريب من العاصمة (جبل المقطم) وإبتنت استوديوهات البث في شارع علوي بك في القاهرة . وكان يمثل الحكومة في مجلس إدارة هذه الإذاعة (مصطفى بك رضى) عازف القانون المعروف ، المقرّب من الملك فؤاد الأول ، و الأستاذ (محمد فتحي) شقيق الشاعر الرومانسي (أحمد فتحي) و الأستاذ (مدحت عاصم) الموسيقي المثقف و المشهور جداً في الأوساط الفنية و الثقافية. إفتتحت الإذاعة رسمياً و باشرت عملها في مايو/ ١٩٣٤ تحت إسم (إذاعة ماركوني من القاهرة) ثم إستبدل الإسم عند نهاية العقد في العام ١٩٣٦ بإسم (إذاعة المملكة المصرية من القاهرة) . وكما حدث بالنسبة للحاكي– فونوغراف عند ظهوره في أواخر القرن الماضي (الكاتب يقصد القرن التاسع عشر) ، حدث بالنسبة لأجهزة الإستماع (المذياع – الراديو) إذ أقبل الناس على إقتناء هذه الأجهزة ، ليستمعوا إلى برامج إذاعة ماركوني ، وهم قابعون في منازلهم حول الأجهزة السحرية ، ولم يقتصر شراء هذه الأجهزة على الشعب العربي في مصر فحسب ، بل تعدى ذلك إلى جميع الأقطار العربية المجاورة منذ بدأت إذاعة ماركوني القوية ببث برامجها ، إذ ظلت هذه الإذاعة مع إذاعة القدس التي إفتتحها البريطانيون المستعمرون في القدس عام ١٩٣٥ الإذاعتين الوحيدتين في المنطقة العربية ، ، وإذا علمنا أن إذاعة بيروت (راديو الشرق) وإذاعة دمشق الضعيفتين قد أنشأهما الفرنسيين في العام ١٩٤٠ . وأن إذاعة راديو الشرق في العام نفسه تقريباً ، أدركنا أن الإقبال على شراء أجهزة الإستماع الذي بدأ تقريباً منذ منتصف الثلاثينيات كان بهدف الإستماع إلى الإذاعتين العربيتين الوحيدتين القائمتين آنذاك (قبل قيام الإذاعة الأخرى في العام ١٩٤٠) وهما إذاعة ماركوني من القاهرة وإذاعة القدس من فلسطين.

لم تجد إذاعة ماركوني في إذاعة القدس مزاحماً فعالاً ، وكان من الطبيعي أن تستقطب هذه بالفعاليات الثقافية و الفنية و القيمة الجماهيرية العربية طوال سنوات ، و أن تتأثر إعلامياً بما تبثه من برامج فنية وإجتماعية و ثقافية وسياسية ، إلى أن تمكنت إذاعة الشرق الأدنى البريطانية من

مزاحمتها بعض الشيء منذ العام ١٩٤١.
إستقطبت إذاعة ماركوني منذ ولادتها مختلف الفنانين ، وأتاحت الفرصة أمام المواهب الشابة دون إستثناء ، فنبغ منهم من نبغ ، و توارى منهم من لم يستطع أن يثبت وجوده . وقد نال المشاهير من أمثال (منيرة المهدية ونادرة الشامية وفتحية أحمد و مطربة العواطف ملك وبخاصة أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب و صالح عبد الحي و الشيخ أمين حسنين) حصة الأسد من البرامج ، كذلك إعتبر كل من (عبد الغني السيد و أحمد عبد القادر و نجاة علي و رجاء عبده و عبده السروجي و محمد بخيت و محمد صادق) من الأوائل الذين تحق لهم الأفضلية على من يليهم . أما رياض السنباطي فقد نال إمتيازاً خاصاً بفضل مصطفى بك مدير معهد الموسيقى العربية الذي كان يُدرس فيه ، وبفضل مدحت عاصم عضو مجلس إدارة الإذاعة للقضايا الموسيقية ، عندما أتاحا له فرصة العمر في الأداء العلني كمطرب ، وفي التلحين لغيره .
و مدحت عاصم هو الذي شجع المطرب آنذاك فريد الأطرش ليغني من إذاعة ماركوني في العام ١٩٣٦ لحنين لمدحت عاصم (كرهت حبك) و (ميمي أنا السعيد في غرامي) .
يقول السنباطي عن بدية تعامله مع الإذاعة ما يلي :
" وذات يوم طلبتني الإذاعة ، والإذاعة في رأيي لها باب ضيق ، إذا نجح الفنان في الدخول منه .. وهذا الدخول يتطلب أشياء كثيرة . فأنت قد تدخل منه لأنك ممتاز فعلاً في فنك ، وقد تدخل منه لأنك محسوب من المحاسيب ، و قد تدخل منه لأنك لا تستطيع الغناء و لاتمتاز في ناحية من النواحي .. و كذلك تدرك في النهاية أن الجميع متساوون . و يستولي عليك شعور بعدم الرضى .. وأنا شخصياً كانت لي تجربة كبيرة ، فعندما تقدمت لها بأغنيتي التي سمعتها أم كلثوم في إحدى الإذاعات الخاصة فقدرتها ، وأعني بها (ياريتك حبيبي) كانت الإذاعة تعاملني معاملة الفنان المبتدئ الناشئ ... وعلى الرغم من مرور السنين الطويلة التي تطور فيها إنتاجي ، فإن المسئولين في الإذاعة لم يدركوا هذا التطوّر .. وهذا وضع سيء للفنانين ... ".
إن المرارة المختفية وراء هذا القول الذي أدلى به السنباطي في العام ١٩٥٤ يدل دلالة قاطعة على أن الإمتيازات التي قدمت له من قبل (مصطفى بك رضا) و (مدحت عاصم) إنحصرت فقط على دخوله من الباب الإذاعي الضيق كما وصفه .
كانت حصيلة استقطاب الإذاعة للفنانين والمطربين ، هو التنافس بين الأعلام وغير الأعلام على مدى سنوات ، و إنعكس هذا على العطاء الفني بأبعاده ، فإشتهر فنانون مغمورون ، من أمثال : فريد الأطرش وأسمهان و إبراهيم حمودة و محمد عبد المطلب و إرتفع فنانون من مصاف النخبة من الأعلام ، كرياض السنباطي و محمود الشريف وتوارت نجوم لم تستطع أن تساير الركب المتطلع إلى الأمام ، من أمثال منيرة المهدية ، ونادرة الشامية ، ووإنطفأ مطربون ، كان يمكن لهم لو إستمروا أن يلمعوا أكثر كمحمد بخيت ، وعبد اللطيف البنا . و الإذاعة تعامل الجميع بإستثناء محمد عبد الوهاب وأم كلثوم بتسعيرة واحدة ساوت فيها بين النخبة المتميزة من الملحنين و الملحنين العاديين الذين دخلوا أبواب الإذاعة كمحاسيب لا يملكون من الفن حتى إسمه . و الزمن لايعترف بالوقوف ، وقوافل الفنانين مستمرة في مسيرتها ، لا يعيقها عائق من أجل الوصول إلى الهدف اللانهائي في الحياة الموسيقية.
إن الإقبال على الإستماع لإذاعة القاهرة

دفع بهذه الإذاعة إلى إصدار مجلة إسبوعية تحت إسم (الراديو المصري) ، وهذه المجلة كانت تنشر إلى جانب البرامج المقرر إذاعتها اسبوعياً نصوصاً للأغاني الجديدة المتميزة ، وتعليقات مختلفة ، وأبوابها منوعة في الثقافة الفنية الخفيفة ، و في الأدب القصصي المصري و العالمي . ونظرة واحدة إلى أحد الأعداد الصادرة آنذاك ، وإلى البرامج الأسبوعية التي تتضمنها تكفي للتعرف على الأسماء التي لمعت في دنيا الطرب و التلحين ، وأشهر تلك الأسماء هي : محمد عبد الوهاب الذي كان حتى تلك الفترة مقلاً في التلحين لغيره ، و محمد القصبجي و زكريا أحمد اللذين استقطبا بألحانهما جل المطربين و المطربات ، ثم رياض السنباطي و محمود الشريف وعزت الجاهلي . أما المطربون و المطربات الذين لحن لهم كل هؤلاء ولمعت أسماؤهم عن طريق تلك الألحان فهم : أم كلثوم ، فتحية أحمد ، نادرة الشامية ، نجاة علي ، رجاء عبده ، سعاد زكي ، أسمهان ، ليلى مراد ، عبد الغني السيد ، أحمد عبد القادر ، محمد بخيت ، عبده السروجي ، إبراهيم حموده ، محمد عبد المطلب ، حورية حسن ، صالح عبد الحي ، وغيرهم . وتكاد القائمة لا تنتهي كلما أوغلنا قدماً في تقليب أعداد المجلة الصادرة في أواخر الثلاثينيات . و لكن ماذا عن الفترة الواقعة بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٦ ؟ ... ماذا عن نشاط السنباطي خلال هذين العامين كمطرب وملحن ؟
استطاع السنباطي بصوته الرقيق الناعم أن أن يتبوأ مكانة خاصة في إذاعة ماركوني ، من خلال ما كان يقدمه من وصلات غنائية ، وكانت الوصلة الغنائية تقدم في السهرة على دفعتين ، الأولى في مستهل السهرة قبل الأخبار الرئيسية ، والثانية بعدها ، وكان يقدم هذه الوصلة حسب الظروف مرة أو مرتين في الشهر ، وكان يغني في كل وصلةعلى الطريقة المتبعة في الوصلات الغنائية ، فيستهل الحفلة بمقطوعة موسيقية تراثية أو موضوعة من تإليفه أو بمقدمة الأغنية التي سيغني ، ومن ثم ينفرد بالعزف على العود ليقدم إرتجالاته (تقاسيم) ، تنتهي بالعودة إلى المقدمة الموسيقية التي تعاد مرتين ، والتي لا يكاد ينتهي أداؤها حتى يبدأ عازف القانون إرتجالاته ، وهكذا يتعاقب أعضاء التخت الشرقي البارزون في تقديم إرتجالاتهم الموسيقية ، حتى إذا إنتهوا من ذلك يبدأ الغناء بالليإلى (الغناء بكلمة يا ليل) التي يختمها بموإليا (موال) ، أو يكتفي بالليإلى ، وفي كلتا الحالتين تعود الفرقة (التخت الشرقي) لتؤدي مقدمة الأغنية الموسيقية عدداً من المرات ، لترسيخ نغمة المقام في ذهن المستمع ، إيذاناً بتقديم الأغنية الأساسية في الوصلة الأولى ، التي تكون عادة دوراً أو مونولوجاً أو قصيدة . ولما كان ما لحنه السنباطي من أدوار لا يعتد به وغير معروف أو مدوّن ، فإن ما كان يقدمه إنحصر على القصيدة أو المونولوج بالنسبة للوصلة الأولى ، وقصيدة أخرى و أغنية خفيفة (طقطوقة) بالنسبة للوصلة الثانية . و كان يحلو له أن يغني بعض ألحانه التي أعطى للمطربين و المطربات ، وإن كان يفضل دائماً أن يعطي جديداً ، وخير مثال على ما أورداه هو التسجيل الأثري لوصلة غنى فيها قصيدة الزهرة ، وإتبع فيها ما ذكرناه آنفاً .
أشهر الأغاني التي غنى في الإذاعة منذ تأسيسها في العام ١٩٣٤ ، أغنية (يا ريتك حبيتني زي ما حبيتك) و قصيدة (مفادير في جفنيك) لأحمد شوقي ، التي غناها أمام شوقي قبل أن يغنيها فيما بعد محمد عبد الوهاب ، و يقول السنباطي: أن أحمد شوقي سأله عن معنى إحدى الكلمات في القصيدة ، فلم يعرف ، وعندها قال لي شوقي : إياك أن تلحن أي كلمة دون أن تعرف معناها . ويقول السنباطي أنه عمل بهذه النصيحة منذ ذلك التاريخ ، فلم يلحن كلاماً أو شعراً إلا إذا إستوثق من المعنى تماماً .
أدلى السنباطي بذلك في الحديث التلفزيوني الخاص بتلفزيون الكويت .
علماً أن السنباطي إلتقى بشوقي في العام ١٩٣١ عندما غنى من تلحينه قصيدته الشهيرة (مقادير من جفنيك) في المعهد الموسيقي .
وكذلك غنى من شعر علي محمود طه قصيدة (يا مشرق البسمات) ، ومن شعر عباس محمود العقاد (يا نديم البوات) ، ومن شعر أحمد فتحي قصيدة (همسات) و موال (ياريت ودادي يصون قلبك القاسي) ، وقد سُجل هذا الموال فيما بعد بصوت المطرب عبد الغني السيد ...
وفي هذه الفترة من حياته إرتبط بصداقة وطيدة مع محمد القصبجي الذي وجد فيه صدى لألحانه وإسلوبه في التلحين ، مع تباين واضح في معالم الشخصية الفنية . وتعود علاقة القصبجي بالسنباطي إلى الفترة التي كان يلتقي فيها الشيخ علي القصبجي بالشيخ محمد السنباطي ، غير أن الصداقة توطدت بين الإثنين منذ أخذ القصبجي يزكي السنباطي في مجالسه و يمتدح فنه و أخلاقه ، وفي رأي النقاد أن القصبجي كان عاملاً مؤثراً و فاعلاً في حياة السنباطي ، وفي إقبال أم كلثوم وغيرها على ألحانه.
كذلك الأمر بالنسبة للشيخ زكريا أحمد الذي تعاون مع السنباطي منذ أن بدأت أم كلثوم بالتعاون معه ، وإن شاب هذه العلاقة الفتور(علاقة أم كلثوم بزكريا) على الرغم من قدمها بسبب التباين الكبير في أخلاقهما من جهة ، ولتفضيل أم كلثوم السنباطي على زكريا في الأعمال الكبيرة ، وما نقوله عن زكريا أحمد بالنسبة لعامل التفضيل عند أم كلثوم سرى فيما بعد على القصبجي أيضاً ، فدب الجفاء بين زكريا و القصبجي من جهة و السنباطي من جهة ثانية ، ويروي السنباطي تفاصيل ذلك فيقول :
" ..... لم يكن شيء يقف في وجه أم كلثوم .. كانت في بداية شهرتها ، وكل ما تقدمه يلقى نجاحاً منقطع النظير ... في ذلك الوقت بدأت ألحن لها .. كان هناك الله يرحمه الشيخ زكريا و محمد القصبجي يلحنان لها . وعندما إندمجت معها جداً إبتعدت قليلاً عنهما ، فزعلا..... أنا حاولت كثيراً أن أصلح ذات البين ..بقا الأمور المإلية ...الخ ...
لم يكن هناك فائدة ... كانت الله يرحمها عند إصرار فريد من نوعه ، عندما تصر لا تراجع فيه أبداً ".

على بلد المحبوب وديني

في أوائل العام ١٩٥٣ إكتسح السنباطي مصر كلها بلحنه الشعبي (على بلد المحبوب وديني) وصارت الأغنية على كل فم ولسان، وحلقت طويلاً وطويلاً ، بفضل اللحن الشعبي البسيط الصادق و العميق ، وبفضل الأداء الممتع الذي أداه عبده السروجي قبل أن تؤديه ثانية أم كلثوم ، وتسجله على أسطوانات لشركة أوديون ، فما قصة هذه الأغنية ، ولماذا غناها عبده السروجي قبل أم كلثوم؟!
إذا ألقينا نظرة على ألحان السنباطي في تلك الفترة من حياته ، نجدها تائهة تفتقر إلى الشخصية الفنية ، بإستثناء الألحان الدينية التي أعطى ، ومونولوج النوم يداعب ..... كان كغيره من الملحنين الذين يبدؤون حياتهم عادة بتقليد الكبار ، غير أننا لا نعرف له لحناً واحداً نحى فيه منحى سيد درويش في التلحين ، أو نهج أبي العلاء محمد في القصيدة . صحيح أنه تأثر بمحمد القصبجي ومحمد عبد الوهاب في بعض أعمالهما ، ولكنه لم يخضع طويلاً لهذا التأثير الذي لم يكن من القوة كي يطبع أعماله بطابعهما ، وإن لمس فيه التجديد الذي يتوق إليه ، ودله في الوقت نفسه على الطريق التي يجب أن يسلكها وعلى الأسلوب الحديث الذي عليه أن ينتهجه . وبصورة عامة فإن شخصية السنباطي لم تتبلور فنياً ولم تتخذ مساراً واضحاً إلا بعد العام ١٩٣٣ ، وهو العام الذي تم فيه لقاؤه بأم كلثوم . ويمكن القول أن التأثير الذي خضع له في مجمل أعماله التي سبقت (النوم يداعب) على الرغم من التأثيرات الوافدة التي نوهنا بها كانت من أعمال أبيه الشيخ محمد السنباطي ، وخاصة الأغاني الخفيفة ، التي وجدنا لها مشابهاً في أعمال أبيه ، كما ذكر هو بالذات ، فإذا أضفنا إلى هذا إلتزامه منذ بداية حياته الفنية كهاو في المنصورة ثم كمحترف ، لوجدنا أن (ليتو باروخ) وكيل شركة أوديون للأسطوانات هو الذي إتصل به ، وهو الذي طلب اليه أن يلحن لعبد الغني السيد ، وأحمد عبد القادر ، ومحمد الصادق و نجاة علي و من ثم توسعت رقعة إتصالاته ، عندما طلبت نادرة الشامية ومنيرة المهدية وفتحية أحمد ، أن يلحن لهن . وكان الرجل الديناميكي الذي يقف وراء كل هذا هو (ليتو باروخ) الذي إكتشف مبكراً موهبته ، أو لنقل مدحت عاصم الذي أرشد باروخ ودله على موهبة السنباطي . وكما لجأ المطربون و المطربات إليه يلتمسون ألحانه ، لجأت إليه أيضاً أم كلثوم .
ويمكن القول إن البداية (ولادة أغنية على بلد المحبوب وديني) بدأت منذ أن قام بنك مصر بتأسيس ستوديو مصر للسينما في العام ١٩٣٤ ، فأراد أن يستهل إنتاجه بفيلم تاريخي ضخم تكون بطلته أم كلثوم . فعهد إلى الشاعر أحمد رامي بتإليف القصة وأغاني الفيلم ، وإلى المخرج الألماني (فريتز كرامب) بالإخراج ، على أن يساعده في ذلك المخرج الشاب القادم حديثاً من باريس (أحمد بدلاخان).
وهكذا ولدت قصة (وداد) التي تجري حوادثها في عصر المماليك ، لتغدو فيلماً و ليلعب دور البطولة فيه إلى جانب أم كلثوم الممثل القدير أحمد علام ، أما أغاني الفيلم فقد عهد بتلحينها إلى القصبجي و زكريا و السنباطي. وزيادة في الإيضاح فإن أستوديو مصر إتفق مع أم كلثوم على أجر محدد لقاء التمثيل و الغناء ، وإتفق مع كل الفنيين الآخرين عن طريق المشرف على الإنتاج ، الأستاذ أحمد سالم الذي غدا فيما بعد نجماً سينمائياً معروفاً ، كما إتفقت مع شركة أوديون على تسجيل صوت الفيلم وأغانيه في أستديوهاتها ، ولما كانت أم كلثوم تعتمد على زكريا و القصبجي في تلحين أغانيها ، ومازالت مشككة في قدرة السنباطي في التلحين لها ، برغم نجاحها الكبير في (النوم يداعب) فقد تم الإتفاق على أن يلحن السنباطي أغنيتين فقط ،هما : نشيد (حيوا الربيع) و (على بلد المحبوب وديني) ، وبالرجوع إلى حديث لرياض السنباطي حول أغنية (على بلدي المحبوب) أذيع ضمن لقاء طويل مدته ساعة من الزمن من إذاعة القاهرة في العام ١٩٧٧ قال مايلي :
"جاءني المرحوم أحمد سالم ومعه كلمات أغنية (على بلد المحبوب وديني) لأحمد رامي ، معتذراً بأنها الأغنية الوحيدة التي سألحنها في الفيلم .. فيلم وداد ... وبعد أيام أنهيت تلحينها ، وسلمتها لأحمد سالم ، ليعود إلى في إلىوم التإلى ليقول أن اللحن لم ينل الرضى ، ولم يحظ بقبول أم كلثوم . وطلب إلى أن ألحنه ثانية ، فرفضت ، وإن زرع قول أم كلثوم الذوّاقة الشك في مقدرتي .. فطلبت منه أن يكلف ملحناً آخر بتلحينها، وأعلمته بأني سأعطي اللحن لعبده السروجي ....
ويتابع السنباطي فيقول : الذي حدث هو إفتتان (باروخ) باللحن ، فسجله بصوت عبده السروجي ، وقبل أن ينتهي الفيلم ظهرت الأغنية ونجحت نجاحا شعبياً كبيراً ، وزادها نجاحاً على نجاح ظهورها ثانية في فيلم وداد بصوت أم كلثوم وعبده السروجي الذي قام بدور ثانوي في الفيلم المذكور ، غنى فيه مذهب الأغنية فقط بينما غنت أم كلثوم الأغصان ...
ويستمر السنباطي في سرد ذكرياته عن هذه الأغنية قائلاً : بعد نجاح الأغنية وإقبال الناس عليها ، طلبت أم كلثوم أن تسجلها بصوتها لحساب شركة أوديون ، فإشترطت إرضاء عبده السروجي أولاً ، وتم ذلك . وظهر لحني الثاني اللي هو (على بلد المحبوب) بصوت أم كلثوم في أسطوانة أوديون كأغنية من أغاني الفيلم.
إن هذه الأغنية لم تنل إعجاب أم كلثوم عندما إستمعت اليها لأول مرة سجلت مبيعاتها عند ظهورها رقماً بصوتها خياليا، إذ بلغ ربح الشركة منها ١٨ ألف جنيه . وبالعودة إلى ماذكره السنباطي في الحوار مع مجلة المجلة يتبين لنا من قوله :" ... ثم لحنت أغنية إشتهرت بعد ذلك وهي (على بلد المحبوب وديني) ".
إنه لحن لها هذه الأغنية خاصة ، وهو صادق في ذلك ، غير أن أم كلثوم لم تعجب باللحن في بداية الأمر ، فغناه عوضاً عنها عبده السروجي ، وهذا ما جعله يروي الواقعة كاملة في حديثه الإذاعي ، وإكتفى بحديثه لمجلة المجلة بذكر الأغنية على أنها لحنه الثاني لأم كلثوم .
مايعنينا في هذا كله الأغنية نفسها، التي حملت الشيء الكثير من تأثيرات الأجواء المصرية الحميمة ، ومن تأثيرات لحنه الشهير (لونغا رياض) على الرغم من إختلاف اللحنين في المقام والطابع اللحني ، فـ (لونغا رياض) هي من مقام النهوند كما أسلفنا و أغنية (على بلد المحبوب) من مقام البياتي .
لقد غدت هذه الأغنية ، أغنية جماهيرية ، فإجتاحت الوطن العربي من أقصاه لأقصاه لتغدو بسبب تحديها الدائم لعاديات الزمن الفنية و غير الفنية أغنية تراثية فلكلورية، إذ ما زال الناس يتعايشون معها في كل المناسبات ، برغم مرور نصف قرن على ولادتها ، وبذلك فرضوا ديمومتها، لتظل شاهداً على العطاء الفني السخي ، وعلى عظمة هذا العطاء ، وفيما يلي نورد نص الأغنية التي نظمها أحمد رامي.

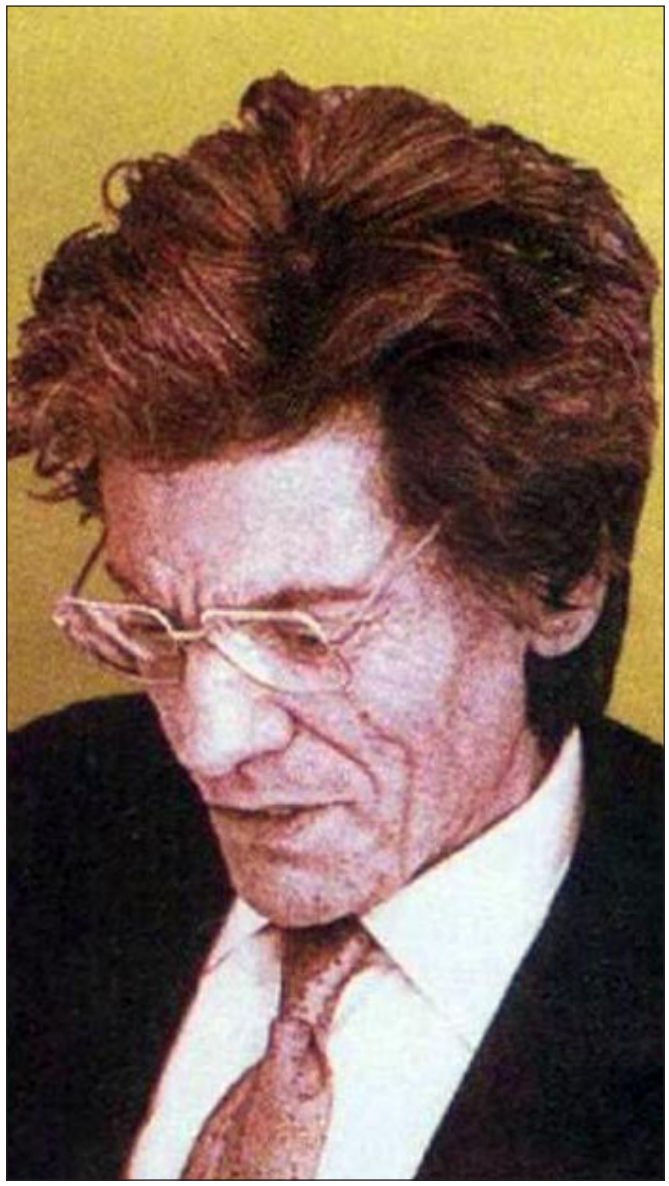

حادثة أحمد صدقي باشا

لم يتخل السنباطي في عمله في المعهد الموسيقي كمدرس لآلة العود ، كذلك لم يتخل عن الحفلات الشهرية والغناء فيها بدافع إرضاء ميوله الموسيقية من جهة ، و مدير المعهد مصطفى بك رضا (١٧) وأستاذه حسن أفندي أنور من جهة ثانية . وكان يقدم في إحدى الحفلات فاصلاً على العود قبل البدء بالغناء ، وفي إحدى هذه الحفلات وبينما كان يؤدي على عوده بعض التقاسيم سرت همهمة بين الحضور وتوجهت الأنظار نحو الرجل الخطير الذي دخل القاعة مع حاشيته ، قبل أن يتوجه مع مصطفى بك رضا نحو المقعد المخصص له ، لم يكن هذا الرجل الخطير سوى إسماعيل صدقي باشا رئيس وزراء مصر آنذاك و جلادها ، والرجل الذي وقف وحده مع الإنكليز و الملك ضد شعب مصر العربي و أمانيه القومية في الحرية و الإستقلال ، وهو الذي قمع المظاهرات الشعبية و الإظرابات الطلابية بالرصاص ، و إعتقل وزج المئات بالسجون ، وكان مكروهاً من الشعب ، ليس بسبب ولائه للإنكليز فحسب ، وإنما لعدائه السافر لحزب الوفد الذي يقف وراءه الشعب المصري بأسره. مصطفى بك رضا ، عازف شهير على القانون ، ومدير المعهد الموسيقي ، و المسؤول الأول في إذاعة ماركوني ، و المقرب جداً من الملك فؤاد الأول.

لقد رأى السنباطي خلال لحظات لم تستمر طويلاً في صورة هذا الرجل آلام الشعب كلها و كراهيته له ... رأى فيه الرصاص الذي صرع مئات المواطنين ، و المظاهرات الدامية و الظلم و الإستبداد فلم يستطع الإستمرار في العزف ، إذ ما كاد إسماعيل صدقي يتخذ مكانه في الصف الأمامي من القاعة و من حوله حاشيته و المتزلفون له ، حتى قطع العزف ، و نهض حاملاً عوده بيمينه ، ثم قفز من على خشبة المسرح إلى القاعة ، وأمام دهشة الحضور غادر القاعة و هو يتمتم بكلمات مبتورة وغاضبة :

" .... ده كلام ....أعزف للرجل ده ...."

و لحق به (مصطفى بك رضا) و (حسن أفندي أنور) في محاولة منهما لإقناعه بالعودة ، ولكنه رفض و أصر على موقفه .

وفي إليوم التإلى غدت الحادثة وإسم رياض السنباطي الموسيقي الشاب حديث الناس و الصحافة . و أفردت له مجلة روز إليوسف مكاناً بارزاً . لقد إستطاع السنباطي عن طريق هذه الحادثة العفوية الغاضبة أن يعبّر عن ضمير الجماهير ، ولكن..! هل مرت هذه الحادثة بسلام ؟! الذين عايشوا تلك الفترة يقولون : أن المسئولين حاولوا الضغط على شركات الإسطوانات و الإذاعة بعدم التعامل معه ، فمنهم من إنصاع ، ومنهم من تعلل ، و منهم من إعتذر للسنباطي بالذات عن واقع الحال .

الصحافة الموالية لإسماعيل صدقي باشا شنت عليه حملة مسعورة ، وخاصة مجلة الصباح التي كتب صاحبها (مصطفى القشاشي) وأخوه رئيس تحريرها عدة مقالات جرحت السنباطي في الأعماق ، ولكنها لم تستطع أن تذل كبرياءه و إعتزازه بنفسه . ويروي السنباطي هذه الحادثة بألم كلما تذكرها فيقول :

".....ليس هناك إبن آدم لم تمر عليه الظروف ... ظروف سعيدة و عصيبة ، توفيق و عدم توفيق ، فلوس و قلة فلوس ، فشل في الحب و سعادة في الحب ...لازم ... بس أنا مشيت مشوار قاسي ..تعبت.. تعبت لحد ما ربنا وفقني ووصلت إلى ما وصلت إليه ..تعبت تماماً ، وهُوجمت ، وحُوربت ، وشُتمت في الجرائد و المجلات . كانوا يحاربونني محاربة كبيرة ، لأني إتخذت موقفاً من قضية لا مساومة فيها ... كانوا يحاربونني محاربة كبيرة ، حتى في رزقي ، كتبوا : إيه الفلاح ده ...كانوا يقولون عني فلاح .. وماله ، ما أنا فلاح ..قالوا : فلاح جه يزاحم العمالقة أو العباقرة ، حاجه زي كده ..في القاهرة ... وقالوا : إرجع البلد اللي جيت منه يا فلاح ....."

ويكمل السنباطي :

"كانت وقتها مجلة قاهرية إسمها الصباح .. كان صاحبها إسمة (مصطفى القشاشي) ..هو و أخوه رحمهما الله ..سامحهما الله ..كانا يتقاضيان من جهات معينة ..كانا يتقاضيان لطمس إسم رياض السنباطي وهو يصعد السلم الذي ينشده لتأخيرة ...لعرقلته .. يرونني طلعت سلمة ، يحاولون إنزإلى سلمتين ..... كانت أيام صعبة للغاية ، و لكنني و الحمد لله لم أتراجع ...".

كانت حادثة (إسماعيل صدقي باشا) من الأسباب التي حجبت و منعت عنه المجال الذي ينشط فيه فنياً ، فإبتعد عنه جميع المطربين و المطربات بإستثناء أم كلثوم و عبد الغني السيد ، وفي تلك الأوقات العصيبة كلفته أم كلثوم بتلحين قصيدة (عيد الدهر) لأحمد شوقي ، ولحن لعبد الغني السيد مونولوج (غاب بدري عن عيوني) .

بعد مضي عام وبعض العام على تلك الحادثة ، سقطت وزارة (صدقي باشا) أمام مد الجماهير العارم ، وفاز حزب الوفد بأغلبية ساحقة في البرلمان ، وجاءت وزارة وفدية جديدة من حياته الفنية بعيداً عن الأهواء السياسية.

لم تكن قصيدة (عيد الدهر) ومونولوج (غاب بدري) العملين الوحيدين اللذين أعطاهما السنباطي في تلك الفترة ، فقد ذكر في إحدى المقابلات الإذاعية مايلي(١٩) :

" في تلك الأيام كنت بشتغل بقصيدة (سلوا كؤوس الطلا) وهي قصيدة صعبة جداً .. تفرغت لها تماماً و عملت فيها سنة كاملة ، و لهذه القصيدة قصة ..كانت أم كلثوم في قصر البشوات تحيي ليلة ساهرة لأصدقاء هذا الباشا ، وفي تلك السهرة التي ضمت فيما ضمت الشاعر العظيم أحمد شوقي ، تقدم منها أحد البشاوات و قدّم لها كأساً من الويسكي .. و بما أن أم كلثوم لا تقارع الخمر ، فقد وضعت الكأس على فمها و لم تمسه بشفتيها ...

ويتابع السنباطي حديثه فيقول : في إليوم التإلى تلقت أم كلثوم من أمير الشعراء رسالة ، تتضمن قصيدة ، فإحتفظت بها بعض الوقت ، وعندما نعى الناعي أحمد شوقي ، تأثرت ، ولا أدري ما الذي جعلها تتصل بي في ذاك إليوم الحزين لتطلب إلى الحضورفوراً ، وما كدت أصل لبيتها (كانت تقيم يومذاك في شقة عمارة بهلر بالزمالك) حتى قدمت لي رسالة شوقي وقالت : إقرأها .! فقرأتها ، لاتضم سوى قصيدة شوقي سلوا كؤوس الطلا الت تروي الحادثة إياها :

سلوا كؤوس الطلا هل لامست فاها واستخبروا الراح هل مست ثناياها
بانت على الروض تسقيني بصافيـة لا للسلاف ولا للورد رياهـــا
ما ضرّ لو جعلت كأسي حراشفهـا ولو سقتني بصافٍ من حمايـــاها
هيفاء كالبان يلتف النسيم بهـــا ويلفت الطير تحت الوشي عطفاها
حديثها السحر إلا أنه نغـــــم جرت على فم داود فغنـــاها
حمامة الأيك من بالشجو طارحـــها ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها
القت إلى الليل جيداً نافراً و رمـت إليه أذناً وصارت فيه عيناهـــا
وعادها الشوق للأحباب فإنبعثـت تبكي وتهتف أحياناً بشكـــواها
يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبـت كالحلم ،آها ،لأيام الهوى آهـــا

قلت لها قصيدة رائعة ، فروت لي الحادثة ، والدموع تترقرق من عينيها ، لأعيش الشعر الذي نظمه شوقي فيها ، ثم طلبت إلى تلحينها.

استغرق تلحين هذه القصيدة زمناً طويلاً ، فقد إستلمها السنباطي في العام ١٩٣٢ ولم ينهي تلحينها إلا بعد سنوات . و لما كانت أم كلثوم منهمكة آنذاك بالإستعداد لفيلمها الثاني (نشيد الأمل) فقد أرجأت غناء القصيدة حتى نهاية الفيلم ، على أن رواية السنباطي تحتاج إلى تأمل ، إذ من المعروف بأنه بدأ يلحن لها في العام ١٩٣٢ ، و بعض الباحثين يقولون في العام ١٩٣٤، فكيف إتصلت به أم كلثوم في يوم وفاة شوقي في العام ١٩٣٢؟!

أرادت أم كلثوم أن يلحن أغاني فيلم (نشيد الأمل) كل من زكريا و القصبجي و السنباطي ، غير أن القصبجي ارتأى إبعاد زكريا أحمد لأن قصة الفيلم حديثة ، وتتطلب ألحاناً جديدة لا تدخل في نطاق زكريا أحمد المتشبث باللون القديم ، و إقتنعت أم كلثوم وتوزعت أغاني الفيلم بين القصبجي و السنباطي ، فكان من نصيب القصبجي أغاني (منيت شبابي) (يا اللي صنعت الجميل) (نامي يا ملاكي) و (يا مجد) ومن نصيب السنباطي أغاني (نشيد الجامعة) (افرح يا قلبي) و (قضيت حياتي) ، وقبل أن نخوض في أغاني نشيد الأمل ينبغي الوقوف أمام قصيدة (عيد الدهر) و مونولوج (غاب بدري عن عيوني).

نظم شوقي قصيدة (عيد الدهر) قبل و فاته في مديح الأمير فاروق ، وعندما بدأت الإستعدادات لتولي الأمير فاروق سلطته الدستورية بعد بلوغه السن القانونية خلفاً لأبيه الملك فؤاد الأول طلب من أم كلثوم أن تقدم شيئاً بهذه المناسبة ، فدفعت بهذه القصيدة إلى السنباطي الذي وجد فيها متنفساً بعد حادثة إسماعيل صدقي باشا ، فلحنها بحماسة آملاً من ورائها أن يتخلص من الضغط الذي يتعرض له ، وكان تلحينه لها قوياً ، وغنتها أم كلثوم في حفل كبير ، بمناسبة تسلم الملك فاروق سلطاته الدستورية كافة ، وكان ذلك في العام ١٩٣٥ . وتقول أبيات القصيدة :

المُلك بين يديك في إقبالـــه عوذت ملكك بالنبي و آلـــه
حر ، وأنت الحر في تاريخـــه سمح ، وأنت السمح في إقبالـــه
يفديك نصرانيه بصليبـــه و المنتمي (لـ محمد) بهلالـــه
يجدون دولتك التي سعدوا بهـا من رحمة المولى ومن أفضالـــه
ملك تشاطره ميامن حالـــه وترى بإذن الحسن مآلـــه
فكأنك الفاروق في كرسيـــه نعمت شعوب الأرض تحت ظلاله
يا جنة الوادي و نزهة روحـــه ونعيم مهجته وراحة بالـــه
الله صاغك جنتين لخلقـــه محفوفتين بأنعم لعيالـــه
فاروق جملها وزان ضفافهـــا عرش يلوذ الشعب تحت ظلالـــه
فكأن عيدك عيدها لما مشـــى فيها البشير ببشره و

جمالـــــه
تهني بعيدك في الممالك و اسلمي في السلم للآلاف من أمثالـــــه

أما مونولوج (غاب بدري) فهو من الشعر الغنائي الرومانسي الذي راج في الثلاثينيات ، وسيطر على أنواع الطرب الأخرى حتى نهاية الخمسينيات تقريباً ، لحن السنباطي هذا المونولوج في الفترة نفسها التي لحن فيها (النوم يداعب) وعرضه على أم كلثوم فتحمست له في البداية ، ثم نفضت يدها منه بدعوى أنه يخاطب و يتغزل بإمراة ، مع أنها غنت الكثير من الأغنيات المماثلة .

السنباطي أعطى هذه الأغنية الشاعرية فيما بعد ، إلى المطرب عبد الغني السيد ، الذي خرج بها إلى الناس قبل ظهور أغنية عيد الدهر و بعد النوم يداعب ، ويعتبر هذا المونولوج من الروائع التي لم تتكرر و ظاهرة تلحينية إنفرد بها السنباطي في تلحين الشعر الغنائي حتى غدا مدرسة قائمة بذاتها ، نحى نحوها حتى محمد عبد الوهاب في قصيدة (مهيار الديلمي) العمودية (أعجبت بي) و التي ظهرت بعد (غاب بدري) .

اعتمد السنباطي في تلحين هذه القصيدة ، قبل أن يتخذها أسلوبا له ، على عفوية موهبته ، وتبدأ الأغنية بمقدمة طويلة نوعاً ما ، ينفرد بها العود في مقاطع سريعة موزونة ، لتشاركة الفرقة الموسيقية في ضرب الإيقاع بإنفعال أخاذ ، حتى إذا بدأ الغناء بدأ معه الإنبهار بالمد الصوتي الذي إستغل فيه الأحرف الصوتيه الثلاثة من خلال إندماج المعاني بالأداء المعبر الذي كانت تقطعه الجمل الموسيقية الرشيقة ، و اللوازم الخصلة مفصلة بين عجز البيت و صدره ، حتى إذا أشرفت على نهايتها تمنى المرء لو يظل في الأجواء الشاعرية التي غدا فيها الشعر موسيقى ، والغناء شعراً ، ونداء النجم و الليل والحبيب سحراً و شجناً و فرحاً

غاب بدري عن عيوني بعد أن ذقت رضـاه
لست أدري خبرونـي كيف ينساني هواه
يوم قالت : يا حبيب القلب ودع لفراقـي
قلت : ما أقساك يا دهر و ما أقسى شقائي
ووقفنا نذكر العهد و أيام الوصـــال
وبكينا و جرى الدمع على الخد و سال
ودعتني قلبها يهفو و قد رق لقلبي وغدا إلىوم حنونا
قبلتني ثغرها البسام قد أثبت حبي بعد أن كان ضنينا
اسكنتني ريحها راح المنى و به كل الأمل
إنما وقت الهناء عند إهداء القبـــل
هذه الروضة كانت مرتعاً وقت صبانا
هذه الزهرة فاحت ريحها يحكي هوانا

ذلك البدر نديمي في الدجى عند الظلام
ذلك النجم عليمي طول ليلي لا أنـــام

عندما ظهرت هذه الأغنية (المونولوج) كانت تتطلب مستمعاً خاصاً غير المستمع العادي الذي ألف الصوت الجميل و الأداء الجيد و اللحن البسيط .... كان التلحين هو السيد في هذه الأغنية ، و هو وحده الذي إرتفع بها إلى مشارف لم يبلغها أي مونولوج عند ظهوره ، اللهم إلا إذا إستثنينا بعض أعمال القصبجي الخارقة ، كما في مونولوج (يا نجم) و مونولوج (فين العيون) و كل هذه الأغنيات من الزجليات بخلاف (غاب بدري) التي كانت من الشعر الغنائي ، وهي تشبه في هذا المضمار مونولوج (يا غائباً عن عيوني) لرامي و القصبجي ، في تعدد قوافيها و تفعيلاتها ، وذلك لإتاحة مزيد من الخيال الموسيقي في استخدام الإيقاعات و الإنتقالات المقامية . ومن هنا كان تفرد هذا المونولوج ، نظماً و لحناً و أداءً ، كظاهرة لها خصوصية لم ينتبه لها النقاد في حديثهم عن الشعر الغنائي ، ولم يدركوا أنها كانت المفتاح الحقيقي لكل ألحان الشعر الغنائي الذي جاء فيما بعد .

لم يقتصر إنتاج السنباطي في العام ، ١٩٣٦ و هو العام الذي سبق ظهور فيلم (نشيد الأمل) على أغاني (غاب بدري) و (سلوا كؤوس الطلا) التي تأخر ظهورها ، إذ أعطى في أواخر هذا العام أغنية ثانية لعبد الغني السيد ، هي أغنية (شفت الأمل) التي راجت كثيراً بفضل لحنها المتقدم على سواها و إيقاعاتها الحديثة، و إستخدامات (الكاستنييت) في الإيقاع الراقص المرح للازمتها الوحيدة ،و تقول كلمات الأغنية :

شفت الأمل و الهنـا وجف دمعي و نوحـــي
من يوم ما قلت أنـا كمان بحبك يا روحـــي
نسيت مرار الهـوان و راح عذابي و أنينـــي
و ذقت شهد الحنـان و الدنيا حليت في عينـــي
من يوم ما قلت أنـا كمان بحبك يا روحـــي
تعالى بعد الشجـون نعيش في جو الأمانـــي
بين الطيور و الغصون و نبني عش التبانـــي
لا في عذول يعذلنـا و لا حسود يحسدنـــا
من يوم ما قلت أنـا كمان بحبك يا روحـــي
يا ريت يدوم الزمـان من بعد قرب الحبيـــب
إلا الزمان مهما كـان طويل في وصله قريـــب
شفت الأمل و الهنـا و جف دمعي و نوحـــي
من يوم ما قلت أنـا كمان بحبك يا روحـــي

كذلك ظهرت له مقطوعة موسيقية قصيرة بعنوان (رقصة شنغهاي) ذات طابع مرح ، و لا تصلح للرقص الشرقي ، أو أي رقص آخر من أنواع الرقص ، و لا تعبر لا من قريب و لا من بعيد عن مدينة (شنغهاي) الصينية ، أو أي شيء صيني آخر ، و هي أقرب من أنغامها ووزنها إلى اللونغا منها إلى الرقصة و لا أدري لما أسماها بهذا الإسم.

في العام نفسه ظهر له عمل آخر هام هو قصيدة (همسات) للشاعر أحمد فتحي و قد غناها السنباطي بنفسه ، عدداً من المرات في وصلاته الإذاعية الشهرية ، القصيدة تنهل من تأثيرات (غاب بدري) ولكنها تمتاز عنها بتأثيرات رفيعة ، سيغرف منها السنباطي طويلاً ، قبل أن تتوقف عنده الكلاسيكية الجديدة في التلحين ، مبتعداً مرة واحدة عن الإتجاة الرومانسي الذي أوغل فيه هادفاً إلى التفوق على القصبجي أكثر من مجاراته ، دون أن يهتم بإبداعات محمد عبد الوهاب ، لأنه كان يرى العلم الحقيقي و المستقبل الوضاء في المعلم الصامت محمد القصبجي .

إمتدت تأثيرات همسات إلى أكثر أعمال السنباطي التي جاءت فيما بعد ، ولم ينجو منها حتى محمد عبد الوهاب الذي عرف كيف يسخر موهبة الآخرين لموهبته ، فهو بخلاف سائر الملحنين يملك صوتاً ذهبياً نادراً ، و مقدرة تلحينية كبيرة ، و تفوقاً في إقتباس الدرر ، وكانت (همسات) واحدة من تلك الدرر التي لعبت دوراً في إنتقاله من المنحى التقليدي في تلحين القصائد إلى المنحى الجديد الذي إشتهر به .

manarat

رئيس مجلس الإدارة
رئيس التحرير
فخري كريم

التحرير
نزار عبد الستار
التصميم
مصطفى محمد
التصحيح اللغوي
خليل الاسدي

طبعت بمطابع مؤسسة المدى
للاعلام والثقافة والفنون

ما شاء الله